رقم قومي

عبير مصطفى

الكاتبة:عبير مصطفى

التدقيق اللغوي: أحمد إبراهيم

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٠٩٨٢

الترقيم الدولي: ٠-٢٢-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

رقم قومي

رواية

عبير مصطفى

إهداء

إلى النجمين اللذين أضاءا سماء عمري كلما غشيها الليل، وأقاما جدار روحي كلما أوشك على الانهيار، وأشرقا في ظلمات اليأس بحلو بسماتهما..

إلى من أحيا في هذا العالم بهما...

ابنتي وابني، إليهما.. ولهما أهدي ثاني رواياتي.

ميار محمود

ومحمد محمود

منكما... ومنكما فقط أستمد قوتي لأواجه يومًا جديدًا.

عبير مصطفى

الفصل الأول

مـن ذا الـذي قـال إننـا جميعًـا سواسـية أمـام القانـون، وأننـا متسـاوون تمامًـا كأسـنان المشـط، لنـا ذات الحقـوق وعلينـا نفـس الواجبـات؟ أظنـه مُغيَّبًـا أو أن بـه مسًّـا مـن الجنـون. إذ كيـف يجـرؤ عـلى أن يتفـوه بتلـك الترهـات؟ أوَ يُعقـل أن يسـاوي بـين عِليـة القـوم وحِقارهـم؟

ألمـح نظـرات الامتعـاض تتقافـز هنالـك بـين نوافـذ أعـين بعضكـم، بينـما البعـض الآخـر يهمهـم متسـائلًا عـن كنـه تلـك المغـرورة التـي هـي أنـا، ومـن عسـاي أكـون؟

أنتـم لم تخيبـوا ظنـي بكـم حقًّـا، جاهـزون دائـمًا لإلقـاء التهـم كـما اعتـدتُ أن أصـدق فيكـم، فلـو أنكـم تمهلتـم قليـلًا وأعملتـم

نظراتكم في هذا المكان لأدركتم لِمَ أنا حانقة هكذا على مُطلِق هذا القول الفارغ تمامًا من الصحة..

هلّا التقطتم بعض الأنفاس ونظرتم حولكم لتتبينوا تلك الغرفة الضيقة التي أجلس فيها ها هنا، أسمع بعضكم يتهامس قائلًا:

- إنها تبدو كغرفة حجزٍ في أحد الأقسام!

يا الله! أخيرًا وجدتُ بينكم شخصًا رشيدًا، هي بالفعل غرفة تابعة لأحد الأقسام، كما ترون فهي مقفرة تمامًا إلا من بعض المقاعد المتناثرة هنا وهناك كيفما اتفق، لا توجد بها نوافذ على الإطلاق، الجو خانقٌ كما استشعرتم على الرغم من أننا في منتصف شهر يناير، فكيف الحال إذًا إذا ما استفحل الصيف وأعمل فيها معاول قيظه وسن رماح لهيبه؟ أحمدُ الله على أن ذلك الحادث لم يقع تحت طائلة فصل الصيف وإلا كنتُ سأصاب بالجنون لا محالة، فأنا لا أطيق لفح حرارة لياليه ولا أجواءه التي تجثم فوق سماوات اتزاني النفسي.

ليس هذا هو موضوعنا على أي حال، لنعد لما كنا نتناقش فيه منذ قليل..

بداية اسمحوا لي أن أفسر لكم سر تواجد امرأة راقية الأصول، مخملية الأحاسيس، مرهفة المشاعر مثلي أنا هنا في هذه الأجواء الخانقة، ولكن.. ما رأيكم لنبدأ بالتعارف أولًا؟

بالله لا تكلفوا أنفسكم عناء الاسترسال في تعريفي بكم، فأنتم تمامًا كما أتوقعكم، فليس هناك من داعٍ لتضيعوا وقتي الثمين في شيء لا جدوى من وراءه، أما عني.. فأنا ابنة «وجيه الأسيوطي» رجل الأعمال الأشهر في مصر، وعددٍ لا بأس به من دول العالم، أو على وجه الدقة أنا إحدى بناته الثلاث، لا داعي لأن أعرفكم به فجميعكم هنا يعرفه تمام المعرفة، فهو أشهر من سارية علمٍ تقبع فوق قمة سطح العالم.

أكاد أسمع أحدهم هناك يتساءل عمَّ دفع بابنة «الأسيوطي» لتحتجز هنا في هذا القسم؟ تُرى هل أخبرتكم من قبل بأنكم متسرعون قليلًا؟ ماذا؟ لم أفعل بعد!! حسنًا.. ها أنا أعلِمكم بذلك الآن، فلو أنكم صبرتم قليلًا لقصصتُ عليكم كل شيء من بداياته، أو دعونا نقل بأني كنتُ سأخبركم بالا شيء الذي جاء بي إلى هنا، ففي واقع الأمر أنه لم يحدث ما يستوجب وجودي في هذا القسم ومكوثي هنا في هذه الغرفة.

كل ما حدث هو أني كنتُ عائدة من إحدى الأمسيات لدى صديقتي المقربة «ندى»، ثم شردتُ لبضع دقائق.. بضع دقائق فقط كانت كافية لكي تُفتح أبواب الجحيم على مصاريعها في وجهي، لم أدرِ إلا وقد اصطدمتُ بذلك الفتى الذي ظهر أمامي فجأة على الطريق وكأنه نبت من العدم، لم أستطع التحكم في مكابح السيارة بالكيفية التي يستلزمها الأمر.. فحدث ما حدث، أنتم تعلمون بالطبع ذلك الاكتشاف الذي نال عنه «أحمد زويل» جائزة نوبل في العلوم -الفيمتو ثانية- لم أكن أدرك ماهية تلك الفيمتو ثانية من قبل حتى وقع هذا الحادث، ففي أقل من لمح البصر كان قد تجمع عدد لا بأس به من المارة والتفوا حول السيارة وأخرجوني منها عنوة، وسط سيلٍ من السباب محوره تلك الثرية الهوجاء التي تظن أنها قد امتلكت الدنيا بين يديها فأخذت تعيث فيها فسادًا كيفما أرادت، أسرعت بإخراج هاتفي المحمول لأتصل بأحد أفراد طاقم المحامين لدينا، فما كان من أحدهم إلا أن اختطف الهاتف من يدي في خشونة، أمطرته بوابلٍ من الشتائم بطبيعة الحال، ثم في دقائق معدودة وجدتُ أمامي أحد ضباط الشرطة يطالبني بإبراز رخصة

السيارة ورخصة القيادة خاصتي، ثم يسرع باستدعاء إحدى سيارات الإسعاف بواسطة اللاسلكي الخاص به لنقل الفتى إلى إحدى المستشفيات القريبة.

تسارعت أحداث اليوم السابق أمام عيني وأنا أرى نفسي أنقل بعض الأغراض إلى الحافظة الجديدة.. ها أنا أضع بها مجموعة بطاقات سحب النقود المُميكنة الخاصة بي، وأغفل عن وضع رخصتيّ القيادة والسيارة، وبالطبع لم أضع بطاقة تحقيق الشخصية كما اعتدتُ أن أفعل.. ألا تبًّا، استحثني هو إظهارها قائلًا:

- هلّا أسرعتِ بإخراجها! لن نقضي الليل كله ننتظركِ إن كنتِ قد لاحظتِ ذلك.

نظرت له في ضيقٍ عارمٍ، ثم أجبته بتعالٍ يليق بابنة «الأسيوطي» قائلة:

- يبدو أني قد نسيتها في المنزل هي وبطاقة تحقيق الشخصية .

أجابني في ذهولٍ صارخ:

- عفوًا.. ماذا تقولين؟ أأفهم من ذلك أنكِ أيضًا لا تحملين ما يثبتُ شخصيتكِ؟

ابتسامة استهزاء لاحت على وجهي قبل أن أجيبه في استنكار:

- ولِمَ أفعل من الأساس!

ثم وكأني ألقنه درسًا مصيريًّا في فنون الحياة أضفت قائلة في صلف:

- ألا تعلم من أنا؟ وابنة من؟

كانت سيمفونية انفعاله قد بدأت في التصاعد فصاح في غضب:

- أنا لا يعنيني من تكونين أو من هو والدك، كل ما يهمني الآن هو أنكِ تسيرين بدون رخصة قيادة وذلك أمر قد يصل بكِ إلى الحبس.

هنا كان قد احتلني الغضب وأطبق عليَّ بكلتا يديه فصحتُ فيه قائلة:

- أمجنونٌ أنت! أنا ابنة «وجيه الأسيوطي».. كيف يجرؤ وغد مثلك على مخاطبتي بتلك الوقاحة؟

وكأن قولي هذا قد أضرم نيرانه فصرخ مغاضبًا:

- فلتزمي حدودك يا امرأة؛ كي لا تندمي على قولك هذا.

حـاول بعـض المـارة التدخـل بيننـا لتهدئـة الأمـور، إلا أني كنـت قـد وصلـت لـذروة انفعـالاتي فأردفـت في صيـاحٍ هـادر:

- سـترى مـن ذا الـذي سـيندم في نهايـة الأمـر، سـتدفع ثمنًـا باهظًـا لـكل حـرف أخـرق قـد تفوهـت بـه الآن..

تجمعـت سـحب ثورتـه وتكاثفـت هنـاك فـوق جبينـه فأزبـد وأرعـد، ثـم عـلى حـين غـرة وجدتهـا تمطـر.. ليسـت سـحبه التـي أمطـرت إن كان هـذا هـو مـا جـال ببالكـم، ولكنهـا السـماء هـي مـن فعلـت ذلـك.. وكأنهـا تضافـرت معـه، فتضامنـت سـحبها مـع سـحب انفعالـه كتفًـا بكتـف فأمطـرت بنهـم. زادت سـيول الأمطـار مـن إشـعال فتيـل غضبـه فـأصر عـلى اصطحـابي إلى قسـم الشرطـة بعـد أن اطمـأن إلى أن الفتـى قـد تـم نقلـه إلى المستشـفى.

وكـما تـرون.. أحـضرني إلى هنـا في القسـم، وتـم تسـجيل الواقعـة في محـضرٍ رسـمي، وأمـروا بوضعـي في الحجـز لحـين حضـور أحـد مـن طـرفي بـالأوراق الرسـمية المطلوبـة، ثـم قبـل أن ينـصرف ذلـك الأرعـن أوصى الضابـط المسـؤول بحسـن معاملتـي، لا لأني ابنـة «وجيـه الأسـيوطي» عـلى حـد قولـه، بـل لأنهـم هنـا لا يفرقـون في المعاملـة بـين وزيـرٍ وغفـير.

سمحوا لي بإجراء مكالمة هاتفية واحدة كما ينص القانون، لم أفكر في الاتصال بوالدي.. فلِمَ أزعجه بأمرٍ هينٍ كهذا يمكن حله بإجراءات بسيطة؟ لأدعه هناك في عالمه الشاسع متربعًا على عرشه الخاص فوق السحاب، تسألون بمن اتصلت وقتها؟ بالطبع قد اتصلتُ بـ «فؤاد الألفي» كبير المحامين في مجموعة شركاتنا، طلب مني أن ألزم الهدوء وألا أجزع، وطمأنني بأن الأمر بسيط للغاية.. أخبرته في ضجرٍ بأني لن أنتظر هنا وسط هؤلاء الغوغاء، وأن عليه أن يتولى حل هذا الأمر بأقصى سرعةٍ ممكنة، أجلسوني في أحد الأركان لحين الانتهاء من كتابة المحاضر الخاصة بباقي المتواجدين هنا ليتم وضعنا معًا في الحبس بعد ذلك، لم تمضِ بضع دقائق حتى وجدتُ الضابط المسؤول يتلقى مكالمة هاتفية من أحد الأشخاص، مكالمة أدركتُ أهميتها عندما طلب على إثرها من أحد الأمناء لديه اصطحابي بعيدًا، ووضعي في هذه الغرفة وحدي، لا بد وأن «فؤاد الألفي» قد استعمل إحدى أذرع الأخطبوط التي يمتلكها، وضغط الزر السحري الذي لديه ليبعدني عن عامة القوم الذين يملؤون المكان هنا، حقًّا إنهم لم يجلسوني في أحد أجنحة «الفور سيزونز» الفاخرة، ولكن يكفي أنهم أبعدوني عن هؤلاء العامة هناك.

سينتهي الأمر في غضون ساعات قلائل، أعلم ذلك جيدًا.. ولكن ماذا سأفعل خلال تلك الساعات حتى يتمكن «فؤاد الألفي» من الحضور من «القاهرة» ليصل إلى هنا في «الإسكندرية»؟ نسيتُ أن أخبركم بأني لستُ من سكان عروس البحر المتوسط، ولكني وصلت اليوم صباحًا في زيارة عائلية ستدوم لعدة أيام، أقيم فيها لدى عمتي «رشيدة الأسيوطي» التي كنتُ متجهة إليها عندما وقع الحادث.

بضع ساعات لن تتعدى الأربع على أي حال، ماذا؟ أربع ساعاتٍ كاملةٍ!! وقتٌ طويلٌ هو أليس كذلك؟ ما رأيكم لو زجينا الوقت قليلًا وتحدثنا معًا حول تاريخ عائلة «الأسيوطي» الشهيرة؟ بهذا أضمن أن تنقضي تلك الساعات سريعًا وألا أشعر بالملل، وأكونُ قد أسديتُ لكم معروفًا كبيرًا كذلك، سأدخلكم إلى عالم عائلة «الأسيوطي» المحرم عليكم، والذي أثق بأن الكثيرين منكم يتوقون لارتياده، هذا العالم الذي لم يدخله من قبل إلا صفوة المجتمع.

ماذا قلتم؟ أموافقون أنتم أم لا؟ ماذا؟ موافقون! حسنًا.. لتنصتوا جيدًا ولنبدأ الاستماع سويًّا، فما سأقصه عليكم أمرٌ شديد الإمتاع حقًّا، ولكن لنتفق أولًا.. لن أخبركم عن

اســمي الآن؛ لأكــون محايــدة تمامًــا في سردي للأحــداث، ســأتركُ لكــم توقــع مــن أكــون في نهايــة الأمــر؟ لنعتبرهــا لعبــة شــيقة، أو لنقــل بأنهــا ضربــة حــظٍ لــن تتأتــى لكــم مــرة أخــرى في هــذه الحيــاة، ضربــة حــظٍ عليكــم اقتناصهــا إن كنتــم تتمتعــون بــشيءٍ مــن الــذكاء الاجتماعــي، هــا هــي هديــة الأقــدار تأتيكــم في ثــوب حكايــة نــادرة لــن تســتمعوا لهــا إلا منــي أنــا.. إحــدى بنــات «الأســيوطي» الثــلاث.

الفصل الثاني

هـا نحـن قـد اقتربنـا مـن قلـب الحـدث، أعلـم أننـا اسـتهلكنا بعـض الوقـت كـي نصـل هـا هنـا، ولكـن لا بـأس.. فـما أنتـم مُقدِمـون عليـه يسـتحق أن تبذلـوا في سـبيله الكثـير مـن التعـب.

لا بـد وأنكـم قـد خمنتـم عنـد النظـر إلى ذلـك الطريـق الأسـفلتي ذي الاتجاهـين أننـا في طريـق صحـراوي يربـط بـين مدينتـين مـن مـدن مـصر.. هـو كذلـك بالفعـل، نحـن بالتحديـد في طريـق (القاهـرة / الإسـكندرية الصحـراوي).. الطريـق الأشـهر في جمهوريـة مـصر العربيـة.

اللافتـة هنـاك عـلى الجانـب الآخـر مـن الطريـق تشـير إلى أننـا تحديـدًا في الكيلـو (٢٢).. لنعـبر الطريـق معًـا، ولننعطـف

يسارًا في ذلك الاتجاه الجانبي، بضع دقائق فقط حتى نصل لغايتنا المنشودة. عجبًا لكم.. أبدأتم في التذمر منذ الآن؟ صبرًا.. لتخفضوا أصواتكم قليلًا ولتنظروا معي إلى الأمام، فذاك الصرح الشامخ القابع أمام أنظاركم ما هو إلا قصر «وجيه الأسيوطي» المهيب. أرى أن مشاعر الانبهار قد بدأت في السيطرة عليكم منذ هذه اللحظة، لا بأس بها على أي حال ولكن ما رأيكم لو أجلتموها قليلًا.. فما سترونه بالداخل يفوق بمرات ومرات أعظم تخيلاتكم.

لتعلموا أولًا بأننا لن ندخل القصر في زماننا الحالي، سنعود معًا لعدة سنوات إلى الخلف؛ حيث بدأت الأحداث ها هنا في الاشتعال وأوصلتنا في نهاية المطاف إلى ما نخوض غماره الآن، سندير عجلة الزمن في الاتجاه العكسي لبضع سنواتٍ فقط، مَن منكم يا ترى يريد أن ينال شرف إدارة عجلة الأزمان؟ يمكنني أن أرى ذلك الشاب النحيل الأسمر في نهاية الصف، والذي يرفع يده هناك في حماس، حسنًا يا هذا.. يمكنك التقدم، فقط لتمسك بطارة الأوقات جيدًا ولتنظر إلى ذلك التقويم أمامك.. ابدأ في إداراتها للخلف الآن ولتخبرني بدقة عن عدد سنوات العودة، سنتان.. ثلاث.. أربع.. عفوًا

هـلّا أدرتَ العجلـة بحـماسٍ أكـبر؟ نعـم هكـذا.. هـا قـد اقتربنـا كثـيرًا.. أَوَصَلْنـا لسـبع سـنوات الآن؟ حسـنًا يكفـي هـذا.. نحـن الآن تحديـدًا في ربيـع عـام (٢٠١٣) ميلاديـة.. حيـث تبـدأ أحـداث رحلتنـا الحقيقيـة.

لنسـير سـويًّا في اتجـاه البوابـة الأماميـة.. لا تلقـوا بـالًا لطاقـم الأمـن الموجـود أمامكـم، وأخـبروا ذلـك الفتـى الـذي ينتفـض هلعًـا في آخـر الصـف بـأن يَكـف فرائصـه عـن الارتعـاد، فـكلاب الحراسـة التـي يخشـاها لـن تمسـه بـأي سـوء، فـما دمـتُ أنـا معكـم فـلا يخشـى أحدكـم شـيئًا.. فقـط لتمسـكوا بأيـدي بعضكـم جيـدًا كـي لا تضلـوا ولتتبعـوني؛ هـا نحـن الآن داخـل حديقـة القـصر، لتغمضـوا أعينكـم قليـلًا ولتطلقـوا العنـان لحواسـكم لتحلـق في سـماوات الحلـم، هنـاك بعيـدًا بعيـدًا.. حيـث عبـق ريـاض الجنـة؛ حيـث روائـح سـحرية لم تشـتموها مـن قبـل، تنفسـوا معـي ذلـك العبـير، تشـبعوا بـه أكثـر فأكثـر، هـل لمـس شـذاه أرواحكـم؟ أشـعرتم بدفقـه ينسـاب ليحتويكـم؟ أستشـعرتم تلـك اللـذة وذاك النعيـم؟ افتحـوا أعينكـم ببـطء وتحسسـوا هـذا البهـاء، هنـا.. حيـث العـالم المسـحور.. يمكنكـم أن تطالعـوا الطمأنينـة وهـي تحنـو علينـا في شـكل سـياجٍ مـن أشـجار (المورايـا) السـحرية،

تطل علينا أزهارها البيضاء بأريجها السرمدي؛ فتنتشل عقولنا من موضعها لتعبث بها هنالك في الفضاء، يا الله! لكم أطربني عبيرها واحتلني زمنًا، لكم انتشت نفسي من غزو شذاها لميادين وجداني، لكم ضلت روحي الطريق وسط دروب أوراقها، ولكم استعذب فؤادي ذلك الضلال، تجولوا بأعينكم في كل تلك الأبهة المحيطة بكم، لم تتغير كثيرًا عما هي عليه الآن، اللهم سوى بعض الألوان والديكورات.

عفوًا.. لكم يسوؤني حقًّا أن أنتزعكم من هذا السحر لنستكمل جولتنا معًا، ولكن كما ترون.. فلو أننا استمررنا في استغراقنا هذا فسيداهمنا الوقت ونحن لم ننتهِ بعد، أعدكم بأنه ستتاح لكم العديد من الفرص لتشبعوا أرواحكم الظمأى بكل هذه الروعة، لنرتقي السلم الرخامي معًا ولنستعد للإبحار في نهر الزمن، ما عليكم إلا أن تخفضوا أصواتكم.. وتنصتوا جيدًا.

***

الأحد / الحادي والعشرون من شهر أبريل عام ألفين وثلاثة عشر..

السابعة صباحًا في قصر الأسيوطي، موعدٌ مقدسٌ لدى العائلة، إنه الوقت الوحيد الذي يجتمعون فيه يوميًّا حول مائدة الإفطار، فاختلاف مواعيد عودتهم إلى القصر تجعل من النادر اجتماعهم جميعًا في غير هذا الموعد، غير مسموح لأيٍّ منهم بالتغيب عن الإفطار تحت أي ظرفٍ كان.. لذا فمن المستحيل أن نجد أحدهم قد تخلف عن اللحاق بهم في هذا الوقت.. قواعد صارمةٌ وضعها «الأسيوطي» ولا مناص لهم منها.

«وجيه الأسيوطي» يتصدر المائدة، مرتديًا حُلةً رسميةً، يطالع جواله الخاص باهتمام، وعلى جانبه الأيمن تجلس «عالية» زوجته وابنة عمه في ذات الوقت، لمن لا يعرف نقول إنها الزوجة الثانية له، وشقيقة «فايزة» زوجته الأولى -رحمها الله- تزوجها بعد رحيل شقيقتها بعامٍ واحدٍ، عن يساره مكان فارغ، إنه موضع جلوس «باسل» -أكبر أبنائه- نادرًا ما قد يتأخر «باسل» على موعد اجتماعهم الصباحي لتناول الإفطار، ها هو صوت أقدامه تدك سطح الدرج ليتمه في بضع قفزات فقط، ثم يتجه مسرعًا حيث غرفة السفرة، يلقي عليهم التحية ويحتل مكانه المعتاد، ينظر جهة اليمين

حيث تجلس «فريدة» شقيقته الوسطى والأقرب إلى قلبه من بينهن، يبتسم لها ابتسامته الصافية ويميل عليها هامسًا:

- كيف حالك حبيبتي؟

تجيبه بحنانٍ هامسٍ:

- بخير..

تنظر أمامها وتتناول القليل من الطعام، بينما تخفض مستوى الهمس وتكمل في مشاكسة محببة:

- يبدو أنك قد عدت متأخرًا ليلة أمس؛ لذلك لم تستطع النهوض في موعدك المعتاد.

ينظر لها في لومٍ مرحٍ وكأنه يريدها أن تصمت الآن، تبتسم له وتهز رأسها في تفهم. تطالعهما على الجهة الأخرى من المائدة «دينا» شقيقتهما وكبرى البنات الثلاث، متسائلة في ضجر:

- ألن تكفا أبدًا عن تبادل تلك الأحاديث الجانبية ذات يوم؟

تجيبها «فريدة» في تدلل:

- لن نفعل إن كان هذا ما تريدين سماعه.

تلتقط «سلمى» صغرى الشقيقات الثلاث، والتي تجلس عن يمين «فريدة» طرف الخيط قائلة:

- يخيل إليَّ أنني قد استمعتُ لهذا الحوار ما يربو على عشرات المرات.. كل مرة يتهامس فيها «باسل» و«فريدة» تُسارع «دينا» لتسألهما نفس السؤال، فتجيب «فريدة» بذات الإجابة، بينما يلزم «باسل» الصمت في كل مرة وكأن القط قد ابتلع لسانه.. ألا تملون يا أبناء «الأسيوطي» من ذلك التكرار الممل؟

تضحك «عالية» في انتشاءٍ قائلة:

- دعيهم يتحدثون يا «سلمى».. فوالله إني ما مللتُ أبدًا من مزاحهم هذا!

تتجه بنظرها صوب «وجيه» المستغرق في مطالعة جواله، وتلمس يده متسائلة في حنان:

- أليس كذلك حبيبي!

ينتبه إليها فيبتسم في اقتضابٍ قائلًا:

- نعم هو كذلك..

يتبادلون جميعًا ضحكاتٍ مكتومة، فتقول «سلمى» في مشاغبة:

- ترى ما هو هذا الـ «كذلك» يا أبي؟

يـدرك أن تلـك الصغـيرة ذات الخمسـة عـشر عامًـا تتلاعـب بـه، فيتصنـع الغضـب قائـلًا:

- هـلّا كففتـم عـن هـذا الهـراء الآن ولتخـبروني كيـف هـو حـال كل منكـم؟

ثـم يوجـه نظـره صـوب «باسـل» الجالـس إلى يسـاره ويكمـل:

- لنبـدأ بِـك أنـت باعتبـارك أكـبر إخوتـك، لتخـبرني إذًا لِم عـدت متأخـرًا ليلـة أمـس؟

يقطب «باسل» حاجبيه ويجيبه متبرمًا:

- «شعبان» هو من أخبرك بالأمر.. أليس كذلك؟
- نعم «شعبان» هو من أخبرني..
- ألـن يتوقـف هـذا الـ «شـعبان» عـن نقـل أخبارنـا إليـك ذات يـوم؟ أحيانًـا أشـعر بأنـك قـد وظفتـه هنـا فقـط لنقـل أخبارنـا إليـك، لا لكونـه أحـد طاقـم الخـدم.
- لا تتهـرب مـن الإجابـة بتغيـيرك للموضـوع.. سـألتك لِم عـدت متأخـرًا ليلـة أمـس ولم أتلـق إجابـة منـك حتـى الآن.

- حسنًا.. كنتُ في زيارة لصديقٍ قديمٍ، لم أره منذ فترة، وقد سرقَنا الوقت فلم أدرِ إلا وقد تعدت الساعة منتصف الليل بدقائق، فاستأذنتُ منه وعدتُ إلى البيت مباشرة.

يمعنُ «الأسيوطي» النظر إلى «باسل» طويلًا ثم يقول متهكمًا:

- صديق لك لم تره منذ فترة.. أمرٌ رائعٌ هو.

يصمت للحظات كانت كافية لاستشعار المحيطين به بأن هذا الصمت ما هو إلا هدوء يسبق عاصفة «الأسيوطي» القادمة بقوة.. لم يخيب ظنهم إذ ضرب سطح المائدة بإحدى يديه في قوة قائلًا في انفعال:

- ألن تكف يومًا عن عدم احترامك لأوامري؟ لا أدري في أي شيءٍ قد قصرتُ معك لتتمادى في عقوقي ولتلقي بالأسس التي ربيتك عليها عرض الحائط؟

يخفض «باسل» رأسه محاولًا تجنب الصدام مع والده، فيجيب في خفوتٍ تَلُوح بين أروقته ظلال الضيق:

- لا أرى في صداقتي مع «مصطفى» خرقًا لأسس التربية ولا عقوقًا لحقك كأب.

تتسع حدقتا عيني «الأسيوطي» في ذهول.. نحن إذًا قد بلغنا ذروة إعصاره، ليتخذ كل منكم ساترًا مناسبًا يلتجئ إليه؛ فها هو يضرب بدواماته أرجاء المكان، ويشق حائط المرح الذي كان يحيطه منذ قليل؛ فيصرخ في هياج:

- وعندما تكون ابن «الأسيوطي» الأشهر وتصادق «مصطفى» ابن أحد العمال السابقين بإحدى شركاتنا، والذي طردته لتآمره على مصلحة العائلة، فبماذا تسمي ذلك إذًا؟

تسرع «عالية» إليه تستحلفه بأن يهدأ، بينما تضغط «فريدة» على ذراع «باسل» في رجاء.. يستكمل «وجيه» موجة إعصاره صائحًا:

- حذرتك لمرات عدة من أن تستمر في صداقتكما المزعومة هذه، وأمرتك أكثر من مرة بأن تقطع تلك الصلة بينك وبينه، ولكنك تأبى تنفيذ أوامري، والأدهى من ذلك أنك تعتقد بأني لن أعلم باستمرار علاقتك به.

حاولت «عالية» سحبه بعيدًا عن دوامة انفعالاته قائلة في رجاء:

- لتهدأ الآن يا «وجيه» ولا تسمح لأمرٍ كهذا لأن يعكر صفو يومك قبل أن يبدأ، فلتذهب إلى عملك ولتؤجل مناقشة هذا الموضوع إلى وقتٍ لاحق.. أستحلفك بالله أن تستمع إليَّ وتحقق لي رجائي هذا.

تسارعت أنفاسه في تلاحق وزفر في قوة، ثم صمت لبرهة من الوقت وجه بعدها نظره نحو بناته الثلاث قائلًا:

- لتنصرف كل منكن إلى وجهتها المعهودة. أنتِ يا «دينا» لتذهبي إلى كليتك، وأنتما الاثنتان أراكما لم ترتديا زي المدرسة بعد، ألن تذهبا إليها اليوم أم ماذا؟

تجيبه «فريدة» في خفوت:

- أي مدرسة يا أبي؟ أنا لا أذهب إليها منذ بدء العام الدراسي سوى بضع مراتٍ فقط، وأنت تعلم ذلك.

يهز رأسه قائلًا:

- عذرًا يا ابنتي، أنا أعلم ذلك حقًّا ولكنه الانفعال.. هيا إذًا لتذاكري دروسكِ، أريدكِ أن تحصلي على مجموعٍ مرتفعٍ هذا العام؛ لتلتحقي بكلية الطب كشقيقتكِ «دينا».

ينظر نحو «دينا» بفخرٍ ويربتُ على كتفها مستطردًا:

- لا بد لأبناء «الأسيوطي» أن يحتلوا القمة في جميع مناحي الحياة.

تهز «فريدة» رأسها في طاعة ظاهرية، بينما يتعالى قرع طبول الضيق بداخلها، تسرع «سلمى» قائلة في مرح لتغير جو التوتر السائد:

- أما عني أنا يا أبي فأرجو ألا تعلق الكثير من الآمال عليَّ في مجال التعليم.

ثم تتجه نحوه وتتعلق برقبته مقَبلةً وجنتيه وهي تكمل:

- ولكن لا تقلق من جهتي من ناحية تعاملاتي مع الناس، فأنا أعلم جيدًا من أكون؟

تبتعد عنه قليلًا ثم ترفع سبابتها اليمنى وتقطبُ جبينها في حركة تمثيلية اعتادت تأديتها وترددف:

- أنا ابنة «وجيه الأسيوطي» أشهر رجل أعمالٍ في عالمنا هذا.. تعاملي مع من حولي شرف كبير لهم، لذا فأنا أنتقي جيدًا المحيطين بي، ولا أسمح لأحدهم بالاقتراب من حائط أسواري الحديدي إلا إذا كان يستحق التعامل مع ابنة «الأسيوطي» الأعظم.

تكتم بسمة حاولت الانفلات من بين شفتيها وتنحني أمامهم في أداءٍ مسرحي وكأنها تحييهم، ثم تسرع باحتضان والدها، فيقَبل جبهتها في مرحٍ محببٍ، فتسأله في دلال:

- أمسرورٌ أنت مني يا أبي؟

يجيبها بابتسامة تملأ وجهه:

- مسرور تمامًا يا حبيبتي.

تبتسم وتسأله في مشاغبة:

- أوَ لا تستحق ابنتك المطيعة هدية مميزة نظير التزامها بتعليماتك الخاصة؟

ترتفع ضحكاته عاليًا وهو يقول:

- كنتُ أعلم أن وراء تلك التمثيلية البارعة أمر ما، أنتِ حبيبة أبيكِ يا «سلمى» وتعلمين جيدًا كيف تنتشلينني من دوامات الحياة لأستقر ها هنا حيث السعادة تعلن سيادتها بين ضفتي عينيكِ حبيبتي، ولكن ما رأيك أن نؤجل الكلام عن هديتك الآن حتى لا أتأخر عن العمل؟

تهز رأسها في موافقة فيستطرد في تساؤل:

- يبدو لي أنكِ قد قررتِ عدم الذهاب إلى المدرسة اليوم، أليس كذلك؟

تبتسم له قائلة:

- اقترب العام من نهايته، وامتحانات الجزء العملي على الأبواب، أغلب الطلبة لا يذهبون إلى المدرسة في مثل هذا التوقيت، وأنا كما تعلم طالبة ملتزمة تحب اتباع الأسس السائدة.

داعب شعرها قائلًا:

- مشاغبة أنتِ.. ولكني أعشق شغبكِ هذا كثيرًا.

ثم حول بصره جهة «باسل» قائلًا في حزم:

- سأسبقك إلى الشركة، لا تتأخر عن موعد الاجتماع.. أرجو أن تكون ما زلتَ متذكرًا أنه في تمام العاشرة.

قبَّل وجنة «عالية» ثم أسرع مغادرًا بينما تتبعه أنظار المحيطين.

الفصل الثالث

ينطلق «باسل الأسيوطي» متجهًا صوب المنزل، بينما يسترجع أحداث آخر نقاشٍ حادٍّ دار بينه وبين والده، مرت ثمانية أيام على ذلك ولكن تلك الذكرى تأبى أن تغادره، تتجول هناك بين أروقة عقله في إلحاحٍ مستفزٍ، وكأنها قد احتلت تفكيره واتخذت منه موطنًا أصيلًا لها.

ما زال يذكر أنه ظل متسمرًا في مكانه لبرهةٍ من الوقت بعد أن غادرهم والده، بينما ضرب الصمت أطنابه في أنحاء المكان، خالته وشقيقاته الثلاث كُن يدركن جيدًا ما يعتمل بداخله؛ فآثرن التزام السكون احترامًا له، هز رأسه بعدها جهة اليمين وجهة اليسار وكأنه ينفض عنها ما حدث، ثم انسحب إلى حجرته في الطابق العلوي في هدوء.

لم تمضِ بضع دقائق حتى سمع طرقاتٍ حنونة على باب الحجرة، حدثته نفسه أنها خالته «عالية»، كان متيقنًا من أنها هي، دعاها للدخول فلبت، خطت إلى الداخل وهي تنظر إليه بتلك الابتسامة الحنونة التي اعتادت ملاقاته بها، نظر إليها مليًّا وهي تقترب، إنها الرقة مجسدة في هيئة امرأة طويلة القامة نحيلة القد، ستة وخمسون كيلو جرامًا من الحنان تخطو إليه، لطالما أحب النحيلات من أجلها هي، ابتسمت لها روحه من الداخل، إنها خالته وزوجة أبيه في ذات الوقت، لم يشعر ولو لمرةٍ واحدةٍ بأنها ليست أمه التي أنجبته، دائمًا ما كان يردد في نفسه.. «لو أنكِ ما زلتِ حية يا أمي، لما أحببتني أكثر منها».

بادرته قائلة في مرحٍ مصطنع:

- أيعقل أن تتركني هكذا لتجلس هنا في حجرتك وحيدًا، دون أن تُسمعني كلماتك الجميلة التي اعتدت ترديدها على مسامعي كل يوم! ماذا أفعل معك الآن؟ هل أخاصمك أم ماذا! ولكن حتى الخصام لن أستطيع الإقدام عليه، فقلبي لن يطاوعني على فعل ذلك.. أرأيت تلك المعضلة التي ألقيتني بين فكيها؟

نظر إليها طويلًا ولم يُعقب، فاقتربت منه وضمته قائلة:

- أنا أعلم يا حبيبي أنك ابن عاقل رزين، وأوقن أنك تدرك أن والدك يريد لك الأفضل، حتى وإن بدا لك غير ذلك..

أبعدت رأسه عنها قليلًا ونظرت في عينيه مستطردة:

- كل البيوت تحدث بها مشاحنات بين الآباء والأبناء طوال الوقت، فلا تعطِ للموضوع حجمًا أكبر مما يستحق.. إن كنتَ ترى أن والدك قد قسا عليك قليلًا وأغضبك، فأنا أعتذر لك نيابة عنه، ولكن عِدني أنك لن تخاصمه، وأنك ستنسى ما حدث من أجل خاطري.

احتضنها قائلًا:

- أنا على استعدادٍ لفعل أي شيءٍ من أجل خاطرك يا خَالَتِي..

صمت للحظاتٍ ثم ابتعد عنها ونظر في عينيها مليًّا قبل أن يردف قائلًا:

- ولكن أبي يجب أن يدرك أنه لا فرق بيننا وبين الآخرين، يجب أن يكف عن التحليق هنالك في عالمه

الخاص، وكأنه يمتلك العالم ويمتاز عن بقية خلق الله بأنه هو «وجيه الأسيوطي» ذائع الصيت.

اقتربت منه وربتت على وجنتيه قائلة في رفق:

- نحن لن نستطيع توجيه آبائنا أو تغير طريقة تفكيرهم بين ليلةٍ وضحاها يا «باسل».. هم آباؤنا مهما اختلفنا معهم، كل ما أطلبه منك الآن هو أن تمتثل لأوامره وأن تخفف قليلًا من زيارتك إلى «مصطفى» في الفترة القادمة.

التقط طرف الخيط وأسرع قائلًا:

- يجب عليه كذلك ألا يستمر في اتهام والد «مصطفى» بأنه تآمر على مصلحة العائلة، وأنه قام بطرده نتيجة لذلك. فكلنا نعلم أن هذا الأمر غير صحيح بالمرة وأن والدي قام بفصل العم «زين» والد «مصطفى» فصلًا تعسفيًّا اعتمادًا على بعض الوشايات الكاذبة من أحد زملاء العم «زين» في العمل، والتي أسرع والدي إلى تصديقها وكأنه كان يتحينها.

قاطعته في استنكار قائلة وهي تردد آخر عبارة تلفظ بها:

- «وكأنه كان يتحينها»! كيف تتحدث عن والدك بتلك الكيفية؟

كانت مشاعل ثورته قد أعلنت عن اعتلائها لساحة المشهد، فأكمل وكأنه لم يسمعها:

- أنتِ تذكرين تلك المشكلة القديمة حول ميراث جدي -رحمه الله- بين والدي من جهة وعمتي «رشيدة» وزوجها من جهة أخرى، والتي أدت لقطيعة طويلة بين والدي وعمتي، حتى تمكنتِ أنتِ وأبناء عمومتكم من التدخل لحلها، وقتها استعانت عمتي بشهادة العم «زين» والد «مصطفى» لتدحض ادعاءات والدي أمام العائلة، وتثبت أحقيتها هي وزوجها في ملكية بعض الأراضي الخاصة بجدي، والتي كان قد كتبها باسم عمتي كهبةٍ مشروطة ترثها عقب موته، كانت أوراق تلك الهبة لدى «فؤاد الألفي» المحامي اللعوب، وشقيق العم «زين».. لم يكن هناك من أحد يعلم بشأن تلك الهبة باستثناء زوج عمتي -رحمه الله- والعم «زين» وشقيقه «فؤاد» الذي لجأ إليه جدي لأنه ما كان يريد لأحد من محاميّ الشركة أن يعلم بالأمر كي لا يصل الخبر لأسماع والدي فيثور غضبه، ولأنه كان ما زال يذكر صداقته القديمة مع والد «فؤاد» والعم

«زين» قبل أن تفرقهما ضروب الحياة ويغدو جدي رجل أعمال شهير، ولثقته الشديدة في العم «زين» وفي زوج عمتي جعلهما شاهدين على عقد الهبة، أراد جدي وقتها أن يميز عمتي بأن يهبها ملكية تلك الأراضي تعويضًا منه لها عن نقله ملكية المجموعة إلى والدي، وأيضًا كي يسرِّيَ عنها كونها كانت قد اكتشفت لتوها بأنها عاجزة عن الإنجاب، أحاطوا الأمر بالسرية فلم يعلم به والدي إلا عقب رحيل جدي عن الحياة، ثارت ثائرته وقتها وجن جنونه، استطاع استقطاب «فؤاد الألفي» إلى صفه: وعدَهُ بحياة رغدة وافتتح له مكتبًا أنيقًا للمحاماة في منطقة راقية، ورفعه إلى مصاف كبار المحامين، استطاع شراءه ولكنه لم يستطع شراء ضمير العم «زين»..

أراد أن يستكمل حديثه، إلا أن خالته قد استوقفته قائلة في لوم:

- هلّا توقفت عن الاسترسال في ذلك الأمر بالله عليك؟ لقد حاولت إثناءك عن الخوض فيه، ولكن الاندفاع كان مسيطرًا عليك لدرجة أنك لم تستمع لما قلته، لزمتُ الصمت لأدعك تُخرج كل ما في جعبتك علك تهدأ قليلًا، ولكن فيما يبدو أن سكوتي هذا قد جعلك

تتمادى في القول لأقصى مدى، أنّى لك أن ترمي والدك بكل تلك الاتهامات وأنت غير مؤهلٍ للحكم على الأمر، كونك لم تحُط بكافة جوانبه! تلك أمور قديمة للغاية لم يعاصرها أي منكم، فكيف سمحت لنفسك بتصديق تلك الترهات التي يلقيها «مصطفى» على مسامعك طوال الوقت! لقد تيقنتُ الآن من صدق وجهة نظر أبيك عندما أمرك بأن تقطع علاقتك بذلك الحاقد. كيف تصدق تلك الادعاءات على والدك يا «باسل»؟ كيف تفعل ذلك، وكأنك لست أحد أفراد هذه العائلة ولا تعرف والدك تمام المعرفة!

أشعرته كلماتها بأن الغضب قد أعماه وجعله يتسرع ليتلفظ بتلك الأقاويل التي تصله من هنا وهناك في بعض الأحايين، حاول إخبارها بأن «مصطفى» لا يد له في ذلك، وإنما هي بعض الكلمات التي تناهت إلى سمعه من بعض الأشخاص في محيط العائلة، ولكنها كانت غاضبة للغاية وغير راغبة في سماع تبريراته في هذا الشأن. وعدها بعدم الخوض في هذا الأمر مرة أخرى فهدأت قليلًا ثم أردفت:

- كل ما يهمني الآن هو أن تصلح من علاقتك مع والدك، وأن تضع دائمًا نصب عينيك أن «وجيه» لم يحب أحدًا كما أحبك أنت، أنت أهم من في عالمه يا حبيبي، أوَ لست ابنه الوحيد وذراعه الأيمن! كل ما في الأمر أنه متغير قليلًا هذه الفترة، وأنت أدرى مني بذلك، فأنت تدرك جيدًا بحكم عملك معه بأنه شديد التوتر بشأن تلك الصفقة التي يريد إبرامها، حقًّا أنا لا أعلم شيئًا عن طبيعة عملكم، فهو لا يشركني في تفاصيل العمل بطبيعة الحال، ولكنه ما فتئ يردد أمامي ليل نهار أنها صفقة العمر، لذا تراه منفلت الأعصاب وعلى غير طبيعته هذه الأيام.

أراد أن يعلمها بأنه يدرك أن تلك هي طبيعة والده التي ما عرف سواها قط، ولكنه كان يعرف شدة حبها لوالده والتي تحجب عنها أغلب عيوبه وتحولها لمميزات كديدن المحبين على مر العصور، كما أنها تحاول تهدئة الأجواء بينهما كعهدها دائمًا، فلم يملك إلا أن هز رأسه لها موافقًا وأردف:

- رغم عدم اقتناعي بأسباب ثورته هذه، ولكني سأفعل ما تقولين من أجل خاطركِ فقط.

صفا وجهها وابتسمت له قائلة:

- هـذا هـو ولـدي «باسـل» الـذي ربيتـه عـلى يـدي طيلـة ثلاثـة عـشر عامًـا.

ثلاثة عشر عامًا..

ثلاثة عشر عامًا..

تكـررت الكلمـة في بالـه عـدة مـرات، حتـى انتبـه إلى أنـه قـد فـوت المنعطـف الـذي يقـوده إلى المنـزل، لـزم الجانـب الأيمـن مـن الطريـق ثـم قـام بإيقـاف السـيارة ليلتقـط أنفاسـه التـي أخـذت في التلاحـق مـن جـراء اسـتعادته لتلـك الذكـرى، حدثتـه نفسـه بأنـه ربـما يكـون قـد أخطـأ عندمـا اسـتمع لتلـك الادعـاءات المتواتـرة عـن والـده، ربـما أن الأمـر لا يعـدو كونـه محـض افـتراءاتٍ مـن عـدة حاقديـن عـلى والـده كـما تقـول خالتـه، إن والـده رجـل أعـمال ناجـح وشـهير، بـل ربـما يكـون أشـهر رجـل أعـمال في مـصر كلهـا، ومـن البديهـي أن يكـون هنـاك الكثـيرون ممـن ينكـرون عليـه هـذا النجـاح ويضمـرون لـه الـشر في نفوسـهم، إنـه لم يعـاصر تلـك الأحـداث ولا يعلـم حقيقـة دواخلهـا، فلِـم لا ينظـر إلى الأمـر مـن تلـك الناحيـة التـي تنظـر بهـا خالتـه إليـه! ليجـرب أن يقـف معهـا هنـاك عـلى ذلـك الجانـب الهـادئ مـن شـاطئ الحيـاة، علـه يسـتريح

قليلًا من تلك الصراعات التي تدور رحاها بداخله منذ فترة طويلة، وعل علاقته بوالده تستقر قليلًا، حقًّا إن والده متصلب الرأي لدرجة تصل في بعض الأحيان إلى الديكتاتورية، ولكن ما المانع من أن يرضخ لرأي والده كما يفعل الجميع؟ وكما اعتادت أن تفعل «سلمى» و«دينا» شقيقتاه، هو يدرك أنهما لا تعجبهما آراء الوالد في أغلب الأوقات، ولكنهما تستمران في إبداء الموافقة على ما يقول، بل وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى استحسانهما لآرائه في بعض الأوقات تجنبًا للصدام بينهما وبينه، ولينعما برضاء «وجيه الأسيوطي» عليهما، وما أدراك ما هو رضاء «وجيه الأسيوطي» على شخصٍ ما! حتى إن «فريدة» شقيقته الأقرب إليه في الصفات ترضخ لآراء والدهم أغلب الوقت هي الأخرى، حقًّا إن رضوخها يكون بدافعٍ مختلفٍ عن «دينا» و«سلمى».. فهي هادئة لا تحب الصدامات مع من حولها، وتُؤْثِرُ الصمت والسكينة كثيرًا؛ فتمتثل لبعض أمور لا ترضاها نفسها ابتعادًا منها عن جدالات هي في غنى عنها.. تختلف دوافع كل منهن حقًّا ولكن النتيجة واحدة في نهاية الأمر، ليكن إذًا.. ليرضخ له كما يفعلن، أليس هو والده وتجب عليه طاعته!

هـدأت نفسـه عندمـا اسـتقرت أخـيرًا عـلى تنفيـذ هـذا القـرار، كل مـا عليـه فعلـه الآن هـو أن يـسرع بالعـودة إلى المنـزل، ليسـتطيع أن يتجهـز لهـذا الحفـل الـذي أعـده والـده خصيصًـا مـن أجـل نجاحـه في اقتنـاص تلـك الصفقـة التـي كان يسـعى خلفهـا، ليتعلـم متـى يجـب عليـه الانحنـاء تجـاه العاصفـة كـي لا تقتلعـه مـن جـذوره، حقًّـا إن عواصـف «الأسـيوطي» لا تهـدأ أبـدًا، ولكـن لا بـأس.. لينحنـي دائـمًا كـي يتمكـن مـن الصعـود، وليُتقـن تنفيـذ قانـون «الأسـيوطي» الأول في هـذه الحيـاة..

«إن الانحناء للأسيوطي هو بداية طريق الارتقاء»!

حسنًا.. لينحني إذًا.

***

نحنا والقمر جيران.. بيته خلف تلالنا

بيطلع من قبالنا.. يسمع الألحان

يحتضـن صـوت «فـيروز» نسـمات الليـل البـاردة في تلـك الليلـة في مـزاجٍ حـالمٍ.. هنـا في الحديقـة الخلفيـة لقـصر «الأسـيوطي»..

نحنا والقمر جيران.. عارف مواعيدنا

وتارك بقرميدنا.. أجمل الألوان

«فـيروز» والليـل.. طالمـا شـكلا ثنائيًّـا غـير اعتيـادي، ثنائيًّـا يتوافـق تمامًـا مـع حفـل «وجيـه الأسـيوطي» غـير الاعتيـادي هـو الآخـر، ذلـك الحفـل الـذي يقيمـه احتفـاءً باسـتطاعته انتـزاع صفقـة توكيـل السـيارات الجديـدة مـن فـم غريمـه اللـدود «عزيـز منصـور».

وياما سهرنا معه بليل الهنا..

مع النهدات

هـا هـو القمـر أمامنـا ينحنـي إجـلالًا مرسـلًا خيوطًـا فضيـة مُسـكِرة، بينـما تهبـط «فريـدة» الـدرج المـؤدي إلى الحديقـة الخلفيـة؛ حيـث الحفـل المقـام، تهبـط برقتهـا المعهـودة، فيغشـى سـحرها الأعـين.. ترسـل هـي الأخـرى مـداد نظراتهـا باحثـة عنـه، تمشـط أرجـاء المـكان، تقلـب بصرهـا يمينًـا ويسـارًا حتـى تسـتقر عينيهـا في دعـة عـلى صفحـة وجهـه الحبيـب، هنـاك.. في أقـصى اليمـين قـرب سـياج أشـجار «المورايـا» بزهورهـا المحببـة إلى قلبهـا مثلـه تمامًـا.

وياما على مطلعه شرحنا الهوى

غوى حكاياااات

تتجه نحوه في خفةٍ حانيةٍ.. تسري أنفاسها إليه متجاوزة وجوه الحاضرين حولها، مجتازة تلك السنوات الضوئية التي تفصلهما عن بعضهما، يا الله! ألن تنطوي تلك الأمتار الباقية لتلتقيه؟

نحنا والقمر جيران...

«هاشم».. ابن خالتها وحبيبها وتوأم روحها، همست باسمه وكأنها تتنفسه، أعادت ترديده لمرة أخرى واسترقت شهيقًا ممتزجًا بأحرف اسمه الحبيب، وكأنها ترغب في الاحتفاظ به داخلها كي لا تنفلت حروفه منسلةً بعيدًا عنها.

لما طل وزارنا.. ع قناطر دارنا

رشرش المرجان..

- كيف حال قمري وقمر عائلة «الأسيوطي» بأكملها؟

تنتفض ارتباكًا ناظرة إلى خالها «سعيد» الذي ظهر أمامها فجأة على مسرح الأحداث، وحال بينها وبين «هاشم» لبضع دقائق تاليات، وتسرع باحتضانه قائلة في مرحٍ خجول:

- قمرك بخير حالٍ يا خالي.

تخرج من بين أحضانه بينما يسألها في مداعبة:

- أخبريني إذًا.. هل الثانوية العامة تجعل المرء أكثر جمالًا هكذا عن ذي قبل؟

تخفض نظرها في خجلٍ بينما «فيروز» تردد..

يا جارة القمر.. يا أحلى بنية

يداعبها خالها قائلًا:

- أرأيتِ.. ها هي «فيروز» ذاتها تُصدق على كلامي لكِ.

تقبله على وجنته وهي تهمس في حياء:

- أنت تخجلني هكذا دائمًا.

يا جارة القمر.. موجي بها السهرية

تحاول اختلاس بعض النظرات نحو السياج، ثم تكمل في ارتباك:

- أتسمح لي بالاستئذان لبعض الوقت كي أبحث عن صديقاتي؟

يومئ لها برأسه موافقًا فتسرع مغادرة، ثم تستدير عائدة إليه وكأنها تذكرت أمرًا ما..

غني وذِكر.. حب وسهر

تلمس يده فيلتفت لها متسائلًا، فتبادره قائلة:

- أنت الأفضل في هذا العالم.. تذَكَّر ذلك دائمًا.

تتسع ابتسامته فتشمل جوارح قلبها..

ليل الهوى سهراتك.. يا جارة القمر

يضمها إليه في حنانٍ وهو يقول:

- هيا.. فلتسرعي لتبحثي عن صديقاتكِ.

تنفلت من بين يديه في خفة، وتتجه ببصرها لتلك الناحية قرب سياج «المورايا»، عجبًا.. أيناه «هاشم»؟ إنها لا تراه، تلتفت خلفها مجتازة صفوف الحاضرين في لهف باحثة عنه.. فلا تجده، تعود بنظراتها من جديد إلى السياج.. تلمح ظله هنالك تحت الأشجار.. تسرع الخطى إليه بينما قلبها يردد «هكذا أنت دائمًا يا ابن خَالَتِي لا تحب الضوضاء.. مثلي تمامًا».

نحنا والقمر جيران.. بيته خلف تلالنا

بيطلع من قبالنا.. يسمع الألحان

تقترب أكثر؛ فتتضح ملامح ظله أكثر فأكثر، عجبًا.. إن هناك ظلًّا آخر بجانبه، ظلًّا يكاد يلتصق به..

تدنـو في حـذر، في ارتعـاد.. إنهـا تعـرف كنـه ذلـك الظـل، تـكاد تقسـم عـلى ذلـك، يراودهـا الشـك للحظـات، ثـم يرفـع اليقـين راياتـه ملوحًـا في انتصـار، يعلنهـا مدويـة أن ذلـك الظـل يعـود إلى «دينـا».. شـقيقتها، تحتـل الفجيعـة أرض المشـهد فتزيـح اليقـين غارسـة جذورهـا بـين ذرات روحهـا، ينتفـض قلبهـا هنالـك هلعًـا بـين جـدران الضلـوع، مـا لهـا «دينـا» تنظـر إلى «هاشـم» هكـذا في هيـامٍ وتقـترب منـه؟ و«هاشـم»! مـاذا عـن «هاشـم»؟ إنـه يبادلهـا اقترابًـا باقـتراب، ويهمـس لهـا بكلـماتٍ لا تصـل لأسـماعها، ولكـن قلبهـا قـد اسـتطاع إدراكهـا، هـا هـو شـيطان الغـدر يرددهـا عـلى مسـامع فؤادهـا المكلـوم في همـسٍ ذي فحيـح.. ينتابهـا الـدوار؛ فتشـهق في أنـينٍ مكتـوم، تـسرع مبتعـدة عنهـما في جـزع، تتخبـط بمـن حولهـا في عـدم اتـزان.. تلاحقهـا نظـرات بعـض الحضـور في دهـش..

نحنا والقمر جيران.. عارف مواعيدنا

وتارك بقرميدنا.. أجمل الألوان

تصـدح «فـيروز» بآخـر مقطـعٍ مـن الأغنيـة، بينـما يصـدح نـزف «فريـدة» بآخـر مقطـعٍ مـن سـيمفونية وهـمٍّ قـد احتـل وجدانهـا زمنًـا طويـلًا، تصـل حيـث السـلم المـؤدي إلى داخـل

القصر، تصعد الدرج بثباتٍ ظاهري يحوي داخله حمم بركانها الثائر، تصل للمدخل فتصطدم بشقيقها «باسل» وهو في طريقه إلى الحديقة، تبتسم له في مرحٍ زائفٍ تعلم أنه لن ينطلي عليه، ولكن الغريب أنه قد تعداه، لم يلحظه.. يسألها في عجل:

- إلى أين أنتِ ذاهبة الآن والحفل لم ينته بعد؟
- أشعر ببعض الدوار.. سأستريح قليلًا في الداخل.
- حسنًا.. لا تتأخري، فالحفل لا يغدو حفلًا دون وجودك حبيبتي .
- لن أتأخر صدقني، إن هي إلا بضع دقائق فقط أبتعد فيها عن تلك الضوضاء في الخارج، فلتذهب أنت الآن.

تهُمُّ بالصعود لأعلى فيوقفها مناديًا إياها:

- «فريدة»!

تلتفت إليه في إعياءٍ فيسرع قائلًا:

- لقد قررتُ اليوم أمرًا مهمًّا أردتُ إطلاعك عليه.

تنظر إليه عبر الغمام الذي تكون في مجال الرؤية فيكمل:

- لقد عزمتُ على أن أفتح مع والدي صفحة جديدة بيضاء، ليخط هو فيها القرارات التي يريدها..

كان وعيها يسبح هناك في مكانٍ آخر بين أجرام الخذلان ومجرات الخيبة؛ فلم تعلق على قوله.. اقترب منها مردفًا:

- كفانا اختلافًا، فقد مللتُ الجدال معه حقًّا، سأنحني للعاصفة كي تمر كما تقول خَالَتِي، فأنا في نهاية الأمر ابنه الأكبر، وذراعه اليمنى، ويجب عليَّ اتباع خطوات العائلة، أليس كذلك؟

لم تنتبه لما قال بالضبط ولكنها التقطت آخر عبارة كان قد تلفظ بها فهزت رأسها في تسليمٍ وقالت:

- نعم.. هو كذلك.

ربت على يدها وأسرع مغادرًا؛ فاستسلمت لموجات جَذرٍ اجتذبتها هنالك نحو الأسفل؛ حيث عالم آخر ترتع فيه لفحات نيران الانكسار.. جلست على الدرج في انهيارٍ تام، بينما روحها ما لبثت تردد في ذهول كلمة واحدة، كلمة كانت قديمًا بمثابة الحياة بالنسبة لها، ولكنها الآن غدت بحجم وجع الذكرى.. كانت تئن من بين دوامات الوجع مرددة وكأنها تستجديه..

- هاشم..

- هاشم..

جزء من مذكرات فريدة

الانهيار التام... هل قُدر لك التمتع بتلك الرفاهية من قبل؟

ألّا ترى مِن حولك غير تلك الدوامة التي ما فتِئت تجذبك صوبها بإصرارٍ مستميت، فتستسلم لها خلايا قلبك العطشى، أن تسمح لذاتك بأن تنسحق تحت أقدام ذاك الإعصار الذي يضرب أطنابه في حياتك ليل نهار، وأن تستمتع بهكذا انسحاق، ألا يكون لك كيانٌ ملموسٌ في عالمنا هذا، فتتلاشى.. وأن يطرب وجدانك لهذا التلاشي... إنها لعمري لرفاهية غير مسموح بها لبعض البشر من أمثالنا في هذا الوجود، فبعضنا لا يحق له التمتع بهكذا امتياز.

بعضنا قُدِر له أن يكون صلبًا، صلدًا، مصمتًا، راسخًا أبد الدهر، أو.. أن يتظاهر بذلك حتى وإن ابتلعته أنواء الزمان، ومهما عششت بروحه طيور التجافي.

الانهيار التام..

يا الله! لكم رائع هو!

ليت شِعري.. أتَتوقون له مثلي!

أتقابلونه في عالم الأحلام!

أيتراءى لكم دوني!

بالله فلتخبروني...

ألا ليتــه خيــارٌ متــاحٌ لنــا، ألا ليتــه مِلــك يميننــا، ألا ليتنــا نطالــه بأيدينــا المجــردة، غــير أنــه نــاءٍ، بعيــدٍ... بعيــد، وطريــق الوصــول إليــه مُعبــدٌ بالمســتحيلات.

إنــه بالنســبة إلى أرواحنــا التواقــة لــه كــما أســلفت.. رفاهيــةٌ تامــةٌ، امتيــازٌ مُطْلَــقٌ، وأمثالنــا يــا ســادة لا يحــق لهــم التمتــع بهكــذا امتيــاز.

الفصل الرابع

تسرع «فريدة» باجتياز البوابة الرئيسية للحرم الجامعي وتهرول صوب مبنى كلية الحقوق، تختلس نظرة سريعة إلى ساعة يدها.. إنها العاشرة إلا أربع دقائق، تصعد الدرج في خطوات واسعة، بينما أنفاسها تتلاحق، تجتاز الطابق الأول، فالثاني، تصل لوجهتها بالطابق الثالث وتتجه ناحية القاعة المخصصة لامتحانات النصف الأول من العام الدراسي للفرقة الثانية، ها هي داخل القاعة أخيرًا.. تحث الخطى جهة المقعد الأخير، تجلس في إنهاكٍ وتحمد الله أنها استطاعت المجيء في الموعد المحدد للامتحان، تخرج أدواتها من الحقيبة بينما تشهق أنفاسها، يا الله! كادت تتأخر عن الحضور، لقد قضت الليلة السابقة في محاولات يائسة لاستيعاب تلك المادة دون جدوى،

كانت هناك العديد من الأجزاء التي لم تستطع استذكارها بعد، لم يكن أمامها من بدٍّ غير التركيز على الأسئلة المتوقعة وأسئلة الأعوام السابقة التي تتكرر كل عام، حاولت قدر استطاعتها استيعاب تلك الإجابات المعقدة، ولكن بقيت هناك تلك الجزئية التي استعصت عليها، ولم يكن هناك وقت كافٍ لديها لتعيد استذكارها مرة أخرى، فما كان منها إلا أن قامت بالإقدام على فعلةٍ ما ظنت قبل اليوم أن باستطاعتها إتيانها: أخرجت مسطرتها البيضاء وسطرت على ظهرها نص تلك الإجابة كاملًا، هي لم تكن معتادة على أن تقوم بالغش في الامتحانات، ولكن لم يكن أمامها خيار آخر، لا بد لها من اجتياز الامتحانات كلها هذا العام دون رسوب كي لا يغضب عليها والدها، يكفي أنها لم تستطع الحصول على مجموعٍ مرتفعٍ في الثانوية العامة بسبب تلك الحادثة التي ألمت بروحها وقتها، في واقع الأمر إن مجموعها لم يؤهلها إلا للالتحاق بكلية الحقوق تحت نظام الانتساب، وقتها أعلنت رغبتها في الالتحاق بها، وتمسكت برأيها هذا لأول مرة في حياتها، لم ترغب في أن تلتحق بإحدى الجامعات الخاصة رغم إصرار والدها على أن تفعل ذلك أسوة بشقيقتها «دينا»، ولا أن تسافر لاستكمال

دراستها الجامعية بالخارج كما حدث مع «باسل»، كانت إحدى أمانيها في هذه الحياة أن تدرس تحت ظلال قبة جامعة القاهرة، لطالما حلمت بذلك، حلمٌ ساذجٌ هو، ولكن متى ابتعدت السذاجة عن مدن أحلام المراهقين؟ مجادلات طويلة دارت رحاها بينها وبين والدها، كان غير مقتنع بأسبابها في البداية، مستهجنًا لتلك الفكرة، مستقبحًا لها، فكيف لابنته المدللة أن تلتحق بجامعة حكومية كما اعتاد العامة أن يفعلوا! ولكنها استبسلت في الدفاع عن حلمها الخاص، استحلفته كثيرًا أن يرضخ لرجائها هذا؛ فأُسقِط في يده، لم يدر ماذا يفعل، خاصة وأنها كانت غير معتادة على أن تطلب منه أي شيء، رجَته طويلًا وأخبرته بأنها ستجتهد في دراستها لتصبح مستشارة ذات يوم؛ فوافق. لا تدري لم فعل ذلك؟ ربما يكون قد استحسن فكرة أن تصبح ابنته مستشارة في مجال القضاء، وربما يكون قد رق لحالها ولم يشأ أن يرد رجاءاتها خائبة، ألا ليته لم يوافق يومها، وليتها استمعت إليه ونفذت ما أراده لها والتحقت بجامعة خاصة، ولكن ما جدوى الندم الآن!

ها قد بدأ الامتحان.. لتستجمع أفكارها الآن وتشحذ تركيزها لتتمكن من اجتياز هذه المادة، استغرقها الحل فلم

تشعر باقتراب أحدهم من الخلف إلا وهو يدنو منها ويمد يده في هدوء ليمسك بالمسطرة التي خطت عليها إجابة تلك الجزئية، يا الله! كيف فاتها إخفاءها في الحقيبة، خاصة وأن الامتحان جاء غير متضمنٍ لهذا الجزء، نظرت إليه فإذا هو أحد المعيدين الذين يقومون بالتدريس لهم، تبًّا.. ما الذي جاء به الآن؟ لا بد وأنه حظها العثر يمارس ألاعيبه معها كما اعتاد أن يفعل دائمًا. اقترب بوجهه منها هامسًا في تساؤل:

- هل تتفضلين وتخبرينني ما هذا الذي أمسكه في يدي؟

خفضت رأسها حياءً وقالت في خفوت:

- إنها إجابة أحد الأسئلة التي لم أستطع استيعابها جيدًا، ولكن أقسم لك أن تلك الجزئية لا توجد ضمن أسئلة امتحان اليوم، ويمكنك التأكد من ذلك بنفسك.

سألها بصوتٍ خفيض:

- أتعلمين ماذا تسمى فعلتكِ تلك في عُرف القانون؟

أومأت برأسها إيجابًا ثم رفعت عينيها لتلتقي بعينيه قائلة في خجل:

- إنها تسمى شروع في غش.

لم يملك إلا أن يبتسم لها رغمًا عنه، ابتسمت له ابتسامة خجلى فنظر إليها للحظاتٍ ثم قال:

- لتعلمي أن الشروع في الغش يطابق تمامًا الشروع في السرقة، والشروع في القتل.

لم تتكلم فأردف قائلًا في لين:

- لا تفعلي ذلك مرة ثانية.

هزت رأسها ثم أسرعت تبتعد بنظراتها لأسفل، أكمل طريقه وسط لجنة الامتحان متجهًا بخطواته صوب الباب، فرفعت عينيها لتنظر في اتجاهه، توقف والتفت ناحيتها وألقى عليها نظرة خاطفة ثم غادر القاعة.. أحست برجفةٍ انتابت قلبها من الداخل، أغمضت عينيها للحظة وتنهدت في هدوء وعادت تحاول استكمال الامتحان، غير أن وعيها كان قد بدأ ينسل بعيدًا عنها ليتبعه هناك؛ حيث خرج منذ قليل، وجدت نفسها تسترق نظرات خاطفة كل بضع دقائق جهة الباب حيث كان يقف، نظرات اختطفتها على استحياء، تمامًا كما اختطف هو بعض نبضات من قلبها معه قبل أن يغادر..

عجبًا.. من الذي قال إن مادة (قانون الإثبات) مادة كريهة!! إنها تبدو لها في تلك اللحظة محببة للغاية، تمامًا كنظرات عينيه السوداوتين.

***

- هلّا انتهيتما من كل تلك الثرثرة التي لا طائل من ورائها، ولتسرعا بارتداء ملابسكما لنتمكن من الوصول هناك قبل أن تصل «دينا» بوقتٍ كافٍ، كي لا تفسدا عليها تلك المفاجأة التي أعدها لها «هاشم»؟

قالتها «عالية» ونظرت إلى ابنتي شقيقتها «فريدة» و«سلمى» في غيظٍ مكتوم، لم تتحرك أي منهما من مكانها قيد أُنملة وظلتا في مكانيهما تنظر كل منهما إليها في ارتخاءٍ تامٍ، بينما وعييهما يتواجدان في مكان آخر غير تلك الحجرة التي تجمع ثلاثتهم؛ فوجهت نظرها صوب «فريدة» قائلة في دهش:

- ألم تنتهِ من أداء آخر امتحان لكِ اليوم أم أنه يهيئ لي ذلك؟

لم تنتبه لها «فريدة» في بادئ الأمر، فنادتها في تبرمٍ:

- «فريدة»... أين ذهب وعيك يا ابنتي؟ أتبخر هكذا في لمح البصر؟ وكأنكِ كنتِ تحتفظين به فقط من أجل إتمام امتحاناتكِ لهذا الفصل الدراسي.

انتبهت «فريدة» وابتسمت لها في خجل، وأسرعت لتنهض من فراشها، وقفت قبالتها تنظر لها تلك النظرة المتوسلة المرحة التي تشتهر بها، والتي لا تملك أمامها «عالية» إلا أن تحتضنها ككل مرة قائلة:

- آهٍ منكِ أنتِ يا ابنة قلبي.. دائمًا ما تُجيدين هدم حائط انفعالاتي بابتسامتك التي تشرق شموسًا فوق أيام العمر، وتعرفين جيدًا كيف تسحبينني إلى سماء دنياكِ الخاصة؛ حيث أنسام البراءة تحلق هناك، أبعدتها قليلًا ونظرت في عينيها قائلة:

- أتعلمين! دائمًا ما كنتُ أشعرُ أنك الأقرب لي في الصفات من «دينا» ومن تلك المشاغبة الجالسة هناك فوق الفِراش ترقبنا بمكر.

قالتها وألقت بنظرةٍ مشاكسة جهة «سلمى» التي ابتسمت قائلة في مشاغبة:

- حتى لو كنتِ تشعرين بذلك خَالَتِي، فأنا أوقن في قرارة نفسي بأنني أنا الأكثر شبهًا بكِ من بيننا نحن الثلاثة..

حركت «عالية» سبابتها أمام وجهها علامة النفي وهي تقول في مرح:

- هراء.. كل ما تقولينه ما هو إلا هراء، أنا أعلم قلبي جيدًا، وأدرك قلب من منكن هو الأقرب إليَّ في الصفات..

أسرعت «سلمى» قائلة في بكاءٍ مصطنع يألفه كل فرد في عائلتها:

- هكذا إذًا.. آهٍ عليكِ يا «سلمى»، لك الله يا صغرى بنات «الأسيوطي»، ليس هناك من أحدٍ يقدركِ حق قدركِ، حتى خالتك الحبيبة تتنصل منكِ لترتمي بين أحضان «فريدة».. أي ظلمٍ هذا يا ربي!

انطلقت كلتاهما تضحكان من جراء قولها هذا، فأسرعت «عالية» باحتضانها هي الأخرى قائلة:

- أنتن الثلاث قرة عيني اليمنى يا حبيبتي.

غمزت لها «سلمى» بعينيها متسائلة:

- عجبًا.. أتمتلكين قرة عينٍ واحدة يا خَالَتِي! أي غرابةٍ تلك!

ضحكت «عالية» قائلة:

- ستظلين هكذا دائمًا تخلطين الهزل بالجَد في مزاجٍ يصعب على غيرنا استيعابه، ألا تعلمين حقًّا من يسكن قرة عيني اليسرى؟

لم تنتظر الإجابة وأسرعت لتكمل:

- إنهما «وجيه» و«باسل».. يقطنان القرة اليسرى هنالك جهة القلب.

صمتت قليلًا ثم أسرعت ترفع صوتها في مرح تطالبهما بالإسراع لارتداء ملابسهما ليلحقوا جميعًا بذلك الحفل الذي أعده «هاشم» كهدية وأراد به مفاجأة «دينا» في عيد ميلادها، احتفالًا منه بأول عيد ميلاد لها يمر عليهما بعد إتمام خطبتهما.

وعداها بالانتهاء سريعًا، فأردفت في صوتٍ متهدجٍ:

- أتعلمان.. كل ما أتمناه في هذه اللحظة هو أن يمد الله في عمري لأرى كلًّا منكما تحيا مع رجلٍ يصونها حقًّا ويحبها قدر حب «هاشم» لشقيقتكما.

أسرعت «فريدة» لتقول في صدق:

- أنعم الله عليهما بالهناءة وراحة البال، وأظلهما بسحابات الحب والتفاهم يا خَالَتِي.

ابتسمت لها خالتها وأسرعت بالخروج وهي تصفق الباب خلفها متجهة لاستكمال زينتها، حين تناهى إلى أسماعها صوت «سلمى» تُسائل شقيقتها من الداخل في استنكار:

- أحقًّا تتمنين لهما السعادة معًا؟

استوقفها السؤال كما استوقفتها تلك النبرة التي نطقته بها «سلمى»، انتظرت في مكانها ولم تبرحه، لتصلها إجابة «فريدة» إذ تقول:

- ولِمَ أتمنى لهما غير ذلك من الأساس؟ إن «دينا» هي شقيقتي التي أحبها بكل جوارحي، و«هاشم» هو ابن خالتنا الذي تربينا وكبرنا معه، وهي يحبها حقًّا وأرى أنها تبادله ذات الشعور، فما عساي متمنية لهما غير ذلك؟

صكت تلك الضحكة الساخرة التي أطلقتها «سلمى» أذنيّ «عالية» كالقذيفة، ثم اندفعت كلماتها تدق قلاع روحها

بمدفعية هاون تنطلق من بين شذرات الأحرف وهي تسمعها تردف في استهزاء:

- أي ساذجة أنتِ يا شقيقتي الكبرى! أتصدقين حقًّا أن «دينا» قد تعشق «هاشم»! بل هل تصدقين أنها يمكنها أن تحب أحدًا ما كائنًا من كان على الإطلاق؟

أتبعت قولها بضحكة ثم أكملت:

- إن «دينا» يا شقيقتي العزيزة لا يحتوي قاموس أبجديتها على أي من حرفي الحاء أو الباء..

فجأة خيل إلى «عالية» أنها قد انتقلت إلى داخل الحجرة معهما، وكأنها تراهما رأي العين.. ها هي «فريدة» تندفع جهة «سلمى» وتمسك بكتفيها في قوة، وتهزها قائلة بينما تنظر إليها في استنكارٍ صافٍ:

- أي قولٌ حقيرٌ هذا؟ كيف سولت لكِ نفسكِ هذا الاعتقاد! بل كيف طاوعكِ قلبكِ على التفوه بتلك الترهات؟

أسرعت «سلمى» تفح في أذنيها قائلة:

- أقول ذلك لأني أعلم «دينا» جيدًا بينما يجهلها كل فردٍ يقيم تحت سماء هذا البيت، «دينا» التي دائمًا ما ترتدي

قناع الطاعة لتنال رضاء والدي، «دينا» التي تتصنع الرزانة والتعقل لتحظى بتقدير كِبار العائلة، «دينا» التي تُوهم كل من حولها بأنها تلك الفتاة الرومانسية الحالمة التي تحلق هنالك في سماوات وردية لتمتلك قلوب الجميع، «دينا» التي ما إن أحست بقلبكِ وهو يهتف خلف أضلعكِ باسم «هاشم» حتى أسرعت ونسجت خيوطها حوله في دهاءٍ كأنثى عنكبوتٍ ماهرةٍ تجيد اصطياد ضحاياها بصبرٍ وأناةٍ، حتى إذا ما ضمنت امتلاكها لقلبه.. هدأت نفسها وأرخت خيوطها قليلًا من حوله؛ لتشعره ببعضٍ من نسمات حريةٍ زائفة فيظن ذلك الغافل أنه قد امتلك الكون وقتما سمح لها بتكبيله بحبائل العشق، «دينا» التي ما همها يومًا تحطيم قلبكِ ولا انطفاء روحكِ..

كانت «فريدة» تنتفض هلعًا كعصفورةٍ باغتتها رياح تشرين على حين غفلةٍ وانتزعتها من دفء الاطمئنان، وطرحتها أرضًا وسط صحاري ريبةٍ جليديةٍ مترامية الأطراف، وحيدة لا تعرف لها طريقًا للعودة، تتقاذفها أهواء الشك، تقلبها ذات اليمين وذات اليسار، قلبها أعزلٌ منزوع الدروع، تنهال عليه سهام عباراتٍ لا

يـدري كيـف يتقيهـا، لا يملـك إلا أن يصـم أُذنيـه رافضًـا الاسـتماع لتلـك الكذبـات، حتـمًا هـي كذبـات ليـس إلا، ولكـن مـا لـه عقلهـا هكـذا يريـد اسـتيضاحها الأمـر أكثـر.. صراعٌ يـدور هنـاك في منتصـف كيانهـا، دوامـاتٌ عاتيـةٌ تقتلـع روحهـا مـن منبتهـا مـن حيـث وُطِنـت عـلى الرأفـة والحـب والتسـامح، لتلقـي بهـا بعيـدًا فـوق أسـنة رمـاحٍ توغـر في الاغـتراف مـن أوجاعهـا، تقطـر في دمهـا خشـاش الفقـد، تسـكب فيـه صهـير الفاجعـة، توعـزُ لهـا نفسـها الثـكلى باسـتبيان الحقيقـة خلـف مـا تقولـه شـقيقتها؛ فتسـتصرخها بـأن تكمـل.. تزيـد «سـلمى» مـن تنكـيء جراحاتهـا فتجـزل في وضـع ملـح حقائـق قـد غابـت عـن «فريـدة» زمنًـا.. تكثـر مـن وضعـه أكثـر فأكثـر، تمسـد بـه شـقوق قلبهـا.. تضغـط بقسـوةٍ حانيـةٍ مشـحوذة الطـرف، لم تـترك ندبـة غافيـة بداخلهـا إلا وقـد أيقظتهـا بصليـل سـيوفها.. حتـى مـا إن امتـلأت روح «فريـدة» بجـراحٍ مثخنـة، إذ بهـا تـصرخ قائلـة:

- كفـى.. لا أريـد سـماع المزيـد، لِمَ فعلـتِ ذلـك؟ لِمَ نفثـتِ تلـك السـموم في دمـي؟ لِمَ يـا «سـلمى»؟ لِمَ..؟
- فعلـتُ ذلـك لأني أحبـكِ، لأنـكِ الأقـرب إليَّ مـن بـين أشـقائي، يعلـم الله أني مـا قصـدتُ إيلامـكِ قـط، وإنـما كنـتُ أريـد لـكِ أن تسـتفيقي مـن حسـن ظنـك المطلـق

بالآخرين.. أقسم لكِ أني ما كذبتُ عليكِ في حرفٍ واحدٍ مما قلته.. أقسم لك يا حبيبتي.

أجهشت «فريدة» بالبكاء أمام ناظري تخيل «عالية» الذي أخذ في التراجع تدريجيًّا إلى الوراء، عابرًا باب الحجرة حتى استقر أخيرًا خارجها.. شهقت أنفاسها في التياعٍ وهي تكتم صرخةً أرادت أن تشق سكون المشهد في لهف، تحركت في جزعٍ صوب الردهة المؤدية لحجرتها، بينما روحها تجول هناك في سراديب الزمن، تحملها حيث الماضي السحيق، تقودها لتلك البقعة المنسية في كهف الذكريات، تجبرها على الاقتراب، تدنو من ذاك الركن القصي حيث ينتصب أمام ناظريها شاهدًا لقبرٍ وحيد، تنحني نحوه في رهبة.. تنبش رمال ذكرى وارتها يدها التراب منذ وقتٍ بعيد، تصطدم بذلك الصندوق المغلق، تفتحه، تنقب داخله.. لم يستغرقها الأمر كثيرًا حتى وجدت تلك الذكرى أمامها.. تنهض من ثباتها لتعود من جديد.. عنقاء أخرى تُبعثُ من رمادها.. تتوعد أفراد العائلة بالانتقام، لم تشعر بنفسها وهي تضغط على شفتها السفلى بقوة إلا عندما استشعرت ذلك الطعم الصدئ بفمها، مسحت خيط الدم بإحدى يديها في لوعة، كانت قد

وصلت إلى حجرتها، فدلفت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها والتفتت إلى المرآة، أمعنت النظر فيها طويلًا، ثم التقطت في آلية أحمر الشفاه وأخذت تمرره فوق شفتيها في شرود، بينما نزف ذكرياتها يردد على مسامعها عبارة ما.. أعادت ترديدها بداخلها مرارًا ومرارًا، استنشقت زفرة حارة ثم كررت تلك الجملة بصوتٍ مرتعدٍ قائلة في مرارة:

- ما أشبه اليوم بالبارحة يا ابنة شقيقتي.. حقًّا ما أشبهه!!

الفصل الخامس

داخل حجرة الاجتماعات الصغرى لمجموعة شركات الأسيوطي تَحلق ثلاثتهم حول المائدة.. «وجيه الأسيوطي» وابن عمه وشقيق زوجته «سعيد الأسيوطي» وأخيرًا «فؤاد الألفي» محامي العائلة. كانوا متجهين بأنظارهم صوب ذلك التلفاز المثبت هناك فوق الحائط المواجه لهم يتابعون في اهتمامٍ شديدٍ أحد مقاطع الفيديو التي يظهر من خلاله رجل وامرأة عاريان تمامًا، يتبادلان قبلات محمومة بينما هما في أوضاعٍ مخلةٍ.. انتبهوا على صوت دقات على الباب دلف على إثرها «باسل» إلى الداخل واحتل مكانه حول المائدة يتابع معهم ما يعرض على الشاشة، وتبدو على وجهه ملامح الاستياء.. ارتفعت ضحكات «وجيه» عاليًا عندما انتهى عرض المقطع،

لاحقتهـا ضحـكات «سـعيد» و«فـؤاد» في سـباقٍ تتابعـي، بينـما أخـذ «باسـل» يقلـب بـصره بينهـم في ضيـقٍ مكتـوم، حتـى قطـع وجيـه استرسـال ضحكاتهـم بـأن سـعل في قـوة وأشـار إليهـما بكلتـا يديـه أن توقفـا عـن الضحـك، أخـذ يشـهق أنفاسـه ثـم قـال في انتشـاء:

- هـا قـد سـقط «عـادل ربيـع» بالضربـة القاضيـة، ألم أقـل لكـما إن نهايتـه قـد باتـت وشـيكة؟

أجابه سعيد في سعادة ظاهرة:

- لقـد تخطـت نسـبة المشـاهدة عـلى تطبيـق «YouTube» أكثـر مـن مليـون ونصـف مشـاهدة في أقـل مـن أربـعٍ وعشريـن سـاعةٍ فقـط، أتصـدق ذلـك؟

قهقه «فؤاد» قائلًا:

- إنهـا فضيحـة مدويـة.. أقسـم أن أسـهم شركاتـه سـتتراجع في جنـونٍ مـن جـراء تلـك الفعلـة.

قاطعه «وجيه» صائحًا في جذل بينما يسعل ضحكاته:

- سـتتراجع!! لقـد بـدأت في التراجـع بالفعـل، ألم تصلكـم الأخبـار بعـد؟

أسرع «سعيد» ليجيبه قائلًا:

- بل هي قد وصلتنا بالفعل يا ابن العم، ولكننا ننتظر تلك السقطة التي لا قيامة له بعدها..

هز «وجيه» رأسه مؤكدًا في سرور:

- سيحدث ذلك في القريب العاجل يا «سعيد»، كل ما علينا فقط هو الانتظار.. مجرد الانتظار.

كان «باسل» صامتًا لا يُدلي بدلوه في الحديث حتى التفت إليه والده متسائلًا:

- ما لي أراك صامتًا هكذا يا ولدي؟ ألستَ سعيدًا مثلنا بسقطة «عادل ربيع» تلك؟

تنفس «باسل» بعمق وأجاب:

- كنتُ سأصبح سعيدًا حقًّا إذا ما أزحناه عن الساحة بطريقةٍ أكثر شرفًا من ذلك.

تبدلت ملامح والده واحتل الغضب سطح وجهه وسأله في استنكار:

- أجننتَ يا فتى أم ماذا؟ أتظن أن لنا يدًا في ذلك؟

تمهل «باسل» قليلًا ولم يجبه على الفور، ثم التفت إلى «فؤاد» قائلًا في لهجةٍ تحمل بين طياتها رايات الاتهام:

- أظن أنه من الأفضل أن توجه سؤالك هذا إلى محامي العائلة شخصيًّا.

التفت له «فؤاد» وهو يقول في تعجبٍ مصطنع:

- وما شأني أنا بعلاقات «عادل ربيع» النسائية؟

ابتسم «باسل» في سخرية قائلًا:

- ما شأنك؟ أقسم أن ألاعيب الحواة تلك لا تخرج إلا من تحت عباءتك أنت.

نهض «فؤاد» من موضعه متجهًا نحوه متظاهرًا باللوم بينما يسأله في مداهنة:

- أهذا هو ظنك بي يا ولدي؟

صمت للحظات مستجمعًا شتات أدائه ثم أردف:

- على الرغم من أن رأيك هذا قد نحر عنق قلبي وأراق دماءً كنتُ أظنك تكترث لها، ولكن لا يهم.. فأنت ابني الذي لم أنجبه على أي حال، ومن واجبي أن أتغاضى عن قولك هذا إكرامًا لطول عشرتي معكم، ولكن لتعلم أن تلك المرأة التي ظهرت معه في ذلك المقطع في واقع الأمر ما هي إلا إحدى عشيقاته اللاتي يستخدمهن لتسهيل إتمام صفقاته المشبوهة التي اشتُهر

بهـا.. والتـي أسـهمت في توسـيع دائـرة أعدائـه. لقـد خـرق «عـادل ربيـع» جـل أعـراف مجتمعنـا التـي تربينـا عليهـا، وعـاث فسـادًا فيمـن حولـه حتـى أزكمـت روائحـه العديد مـن الأنـوف؛ فـكان سـقوطه حتميًّـا في نهايـة الأمـر.

- أتريـد إقناعـي بـأن ذلـك المقطـع لم يتـم تسربيـه بمعرفتـك أنـت؟

في دهاءٍ قال:

- ومـا دخـلي أنـا فيـما حـدث يـا ولـدي؟ وكيـف يتأتـى لي الوصـول لـشيء شـخصي كهـذا وأنـت تعلـم أن بيننـا وبينـه مـا صنـع الحـداد وأجـزل في إحمائـه؟

ثم أشار بيده جهة التلفاز وأكمل:

- إنـه يمتلـك جيشًـا جـرارًا مـن الأعـداء الذيـن يتربصـون لـه ويتحينـون الفرصـة تلـو الأخـرى للاقتصـاص ممـا فعلـه معهـم..

زفر «باسل» أنفاسه في ضيقٍ ثم قال:

- حسـنًا يـا أسـتاذ «فـؤاد».. سـأحاول ابتـلاع قولـك هـذا رغـم عـدم استسـاغتي لـكل تلـك المقَبـلات التـي أضفيتها عليـه..

ثم أدار وجهه صوب أبيه وخاله قائلًا:

- ولكن رغم ذلك لا أرى ما يدعو لكل تلك السعادة التي رأيتها مرتسمة على وجوه ثلاثتكم منذ قليل من جراء ما حدث، فحتى وإن كان «عادل ربيع» هذا ملوث اليدين وسيئ السمعة، فمن غير اللائق على الإطلاق إظهار شماتتنا فيه هكذا.. أليس كذلك؟

نظر إليه والده ولم يعقب على قوله، بينما قام خاله من مكانه واتجه إليه قائلًا وهو يربت على كتفه بإحدى يديه:

- والله لقد صدقت يا ولدي، لقد غلبنا التأثر بالتخلص من غريمٍ غير شريفٍ مثله؛ فلم نستطع التحكم في انفعالاتنا.. أنت على حقٍ في كل ما قلته.

هز «باسل» رأسه في قنوطٍ كمن لا يصدق رد فعل خاله، ثم نظر في ساعته قائلًا:

- على أي حالٍ إن الاجتماع مع رؤساء أقسام المجموعة سيبدأ في غضون نصف الساعة، سأسبقكم إلى هناك ويمكنكم اللحاق بي بعد أن تنتهوا من مناقشاتكم هنا.

أسرع وجيه قائلًا:

- فلتذهب إذًا لتتأكد من أن كل شيءٍ خاصٍ بالاجتماع على ما يرام، وسنلحق بك على وجه السرعة.

اتجه «باسل» إلى الخارج.. وما إن أغلق الباب خلفه حتى احتل الصمت أرجاء المكان وفرد أشرعته محلقًا فوقهم لعدة دقائق، حتى قطع «سعيد» نسيج شراعاته المحكم قائلًا في شرود:

- يبدو أن «باسل» ما زال يلزمه الكثير من الوقت ليشتد عوده ويصبح صلبًا، وليغض الطرف عن تلك المثاليات الخرقاء التي يعتنقها.

نهض «وجيه» من خلف المائدة متجهًا صوب التلفاز نازعًا منه وحدة الذاكرة الفلاشية «USB» التي تحتوي على مقطع الفيديو وهو يقول:

- لقد قطعنا شوطًا طويلًا معه لنصل إلى تلك النتيجة التي أمامنا الآن، لقد تحسن كثيرًا عن ذي قبل، لنصبر عليه قليلًا حتى يكتمل تكوينه.. إن هي إلا بضع صفقات تاليات في سوق العمل وسيصبح كما أريده تمامًا.

قال ذلك ثم دس وحدة الذاكرة الفلاشية في جيب حُلته الداخلي مستطردًا:

- غدًا يومٌ آخر.. لنذهب إلى الاجتماع الآن، ثم يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

***

- هكذا نكون قد انتهينا من محاضرة اليوم، أرجو أن تكونوا قد استوعبتم ما شرحته لكم، قد شارف العام على الانتهاء فلتحرصوا على استذكار دروسكم كي لا تتراكم عليكم، كل عام وأنتم بخير بمناسبة «أعياد الربيع» وأهنئ بوجه خاص إخواننا المسيحيين بمناسبة «عيد القيامة»، أتمنى لكم إجازة سعيدة وأراكم الأسبوع القادم بإذن الله.

أنهى «أكرم المنزلاوي» المعيد بكلية الحقوق قوله على طلبة الفرقة الثالثة، ثم شرع في مغادرة القاعة قبل أن ينكب عليه الطلبة بأسئلتهم التي لا تنتهي.. أسرع الخطى صوب الغرفة المخصصة للمعيدين بالقسم، وقبل أن يصل إليها تناهى إلى مسامعه صوت بعض الطلبة تستحثه الانتظار، «يبدو أنه لا فكاك لي منهم اليوم».. دارت تلك الكلمات

بخاطره وهو يستدير لهم، ابتسم لهم على الرغم منه، كان معتادًا على أسئلتهم ومحاصرتهم له عقب المحاضرات أو إذا ما التقاهم في أحد أروقة القسم، لم يجد من قبل أي غضاضة في تلقي استفساراتهم والإجابة عليها، ولكنه اليوم يشعر بأنه على غير ما يرام.. إنه يفتقد وجود «فريدة»، بذهنٍ مشوشٍ بها استمع لأحد الطلبة يستفسر منه عن الفرق بين اختلاس المال العام والاستيلاء عليه، أجابه في عجالةٍ بينما يسائله قلبه في لهف.. «لِمْ لَمْ تأتِ اليوم إلى الكلية كما اتفقا ليلة أمس عندما كانا يتحدثان عبر الهاتف»؟ تنهال عليه الأسئلة تباعًا فيحاول ملاحقتها قدر استطاعة شوقه على المراوغة، طالب يتساءل عن الأركان التي تقوم عليها السرقة؛ فيجيبه.. يسرع زميله في الجانب الآخر بإمطاره بعدة علامات استفهام كانت قد استعصت عليه وقت استذكارها.. تتوالى همهماتهم تباعًا فوق حائط شروده، تخترق سد وعيه عبارات تصله أصداؤها في ضبابية يحاول شق ذراتها قدر الإمكان.. «أدامك الله لنا يا دكتور أكرم».. فيتظاهر بالابتسام.. «لا حرمناك أبدًا.. ولكن هل أستطيع الاستفسار عن كيفية التمييز بين التزوير المادي والمعنوي»! ينظر له «أكرم» من خلف دثار قلقه لهنيهة قبل

أن يمليه إجابة سؤاله، يحاول بتر يد اضطرابه بينما عيناه تختلسان النظر كل بضع لحظات تبحثان عنها، يود لو كان في استطاعته أن يسألهم إن كان أحدهم قد رآها اليوم أم لا؟ كان يزفر في قوة محاولًا التملص منهم حينما ظهرت هناك وسط الزحام، حطت عيناه أخيرًا فوق صفحة وجهها في ارتياح؛ فخفض عينيه سريعًا كي لا تصرخان شوقًا وتفصحا للجميع عما بقلبه، اعتذر عن الإجابة عن باقي الأسئلة.. تعلل لهم بالإرهاق ووعدهم بأن يلتقيهم في وقت لاحق، دلف إلى الحجرة ثم في آلية ألقى التحية على أحد زملائه من المعيدين الذي كان يجلس خلف مكتبه، ثم أسرع بإخراج هاتفه الجوال وفتح تطبيق «WhatsApp» وشرع يكتب إليها:

- ما الذي أخركِ هكذا؟ لقد استبد بي القلق.

دقيقتان كاملتان مرتا عليه كأنهما دهور حتى تلونت الرسالة باللون الأزرق دليلًا على قراءتها لها، ظهر له أعلى الشاشة ما مفاده أنها تكتب.. ثم أتاه ردها:

- لا شيء.. اطمئن، لقد استغرقني النوم فقط ولم أنتبه لرنين المنبه صباحًا.

زفر في راحة قبل أن يرسل لها متسائلًا:

- نحن على موعدنا أليس كذلك؟
- بلى.. سألقاك هناك.
- حسنًا.. سأتحرك في غضون عشر دقائق، لا تتأخري.
- سأكون هناك في الموعد تمامًا كما اتفقنا.

ابتسم رغمًا عنه عندما قرأ رسالتها الأخيرة.. تنهد في راحةٍ قبل أن يلتفت إلى زميله قائلًا في مرح:

- إن هؤلاء الطلبة بالخارج لن يكفوا يومًا عن احتساء القلق في نهمٍ قبيل موعد الامتحانات.. ألا ترى معي ذلك؟

ضحك زميله في استغراب ثم قال:

- عجبًا لك يا «أكرم».. منذ دقائق معدودة كنتَ تبدو قلقًا مهمومًا وكأن على رأسك الطير..

سكت لهنيهة، ثم غمز بعينيه قائلًا في مشاغبة:

- ولكن فيما يبدو أن تلك الرسائل التي تلقيتها قد غيرت مزاجك مئة وثمانين درجة يا صديقي.

ارتبك «أكرم» وإن حاول إخفاء ذلك متسائلًا:

- أي رسائل تلك؟

- تلك الرسائل التي أخذ هاتفك يئن كلما تلقيت إحداها..

أسرع «أكرم» يجيبه قائلًا:

- إنها من والدتي.. كنتُ أطمئن عليها، فصحتها كانت على غير ما يرام مؤخرًا كما تعلم.

أجابه زميله بغير اقتناع:

- والدتك!! حسنًا نحمد الله إذًا أنك قد اطمأننت عليها..

صمت «أكرم» لبرهة من الوقت ثم قام من مكانه متجهًا ناحية الباب وهو يقول:

- سأذهب الآن لألحق بموعدٍ مهمٍ لديَّ.. سنلتقي غدًا بإذن الله.

- إن شاء الله لنا ذلك يا صديقي.

الفصل السادس

- يبدو أنكِ لستِ معي على الإطلاق؟

انتبهت «فريدة» على صوت «أكرم» يحادثها فانتفضت متسائلة:

- عفوًا.. ماذا تقول؟

نظر إليها مليًّا قبل أن يعيد عليها قوله السابق:

- أقول بأنكِ لستِ معي على الإطلاق اليوم..

خفضت رأسها لأسفل ولم تعقب فأكمل:

- منذ أتينا هنا وأنا أشعر بأنكِ لستِ على ما يرام، وكأن هناك ما يشغلك عني، لقد شرحتُ لكِ تلك الجزئية أكثر من مرة وأنتِ تستمرين في النظر إليَّ دون أن يبدو عليكِ استيعاب أي شيءٍ مما قلته.

تنهدت في حرارة ثم قالت:

- لِمَ تقول ذلك؟ لقد كنتُ منتبهة تمامًا لشرحك اليوم.

أغلق الكتاب الذي أمامه ثم نظر في عينيها متسائلًا:

- فيم كنا نتحدثُ إذًا؟

تجمدت نظراتها فوق وجهه للحظاتٍ ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنه، أدار وجهها إليه فهالهُ غلالة الدموع التي تجمعت في عينيها، اقترب بوجهه منها متسائلًا في لهف:

- ما الأمر حقًّا يا «فريدة»؟ لقد ازداد قلقي عليكِ وأشعر بأن هناك خطبًا ما خلف تلك الدموع.

أطلقت العنان لدموعها لتنهال وهي تقول:

- لقد شارف العام على الانتهاء ولن أتمكن من رؤيتك بعيدًا عن أعين الجميع مرة أخرى.

مد يده في حنو ومسح دموعها، وهو يدنو بوجهه منها أكثر وقال هامسًا:

- أوَ تظنين أن ذلك الأمر لا يقلقني كما يقلقك؟ أقسم لكِ أني ما فتئت أفكر به ليل نهار.. وأني لا أتخيل أن تمر ساعات يومي دون أن ألقاكِ فيها.

أطلق زفيرًا حارًّا وتحرك من مكانه مبتعدًا وهو يقول:

- أتعلمين! كثيرًا ما لُمتُ نفسي على اقتراحي عليكِ بأن نلتقي بعد مواعيد العمل وبعد انصراف العاملين جميعًا هنا في مكتب المحاماة الذي أعمل به لدى الدكتور «رأفت» لأشرح لكِ ما استعصى عليكِ فهمه من أجزاء المنهج..

نظرت له في لومٍ فتنهد ثم قال:

- لم أقصد ما وصلكِ من كلامي يا حبيبتي ولكني فقط أتساءل.. لو أننا لم نلتقِ هنا منذ بداية تعارفنا أكنا سنصل لتلك النتيجة أيضًا! أكنا سنزداد تعلقًا ببعضنا البعض هكذا! أم أن الأمور كانت ستسير في نصابها الطبيعي وكنا سنظل مجرد معيد وطالبة التقاها أثناء تأديتها لامتحان (القانون المدني)!

قامت من مكانها واقتربت منه، احتوت وجهه بين يديها قائلة:

- حتى لو لم نلتقِ أثناء ذلك الامتحان.. كنت سألتقيك في مكانٍ آخر، وكنتَ ستهيم بي حبًّا كما حدث، وكنتُ سأضطر إلى مبادلتك ذات المشاعر في نهاية الأمر؛ إشفاقًا

منـي فقـط عـلى ذلـك العاشـق الـذي كانـت تلاحقنـي عينـاه أينـما ذهبـت.

سكتت لهنيهة ثم وكزته في كتفه في دلالٍ قائلة:

- ثـم إننـا التقينـا أثنـاء تأديتـي لامتحـان (قانـون الإثبـات) وليـس (القانـون المـدني).. أرأيـت كيـف أني أذكـر تفاصيل لقائنـا الأول أفضـل منـك!

ابتسم لها فهمست قائلة في لومٍ حنون:

- كيـف طاوعـك قلبـك عـلى أن تقـول ذلـك؟ أكنـتَ تريـد لنـا ألا نلتقـي حقًّـا؟ أكان ذلـك سـيجعلك أكثـر سـعادة؟

لم يشعر بنفسه إلا وهو يحتضنها في قوة قائلًا:

- ليـس هنـاك مـن شيءٍ في هـذا العـالم يسـعدني قـدر وجودنـا معًـا.. آهٍ يـا حبيبتـي لـو تعلمـين كـم يحبـكِ قلبـي؟ وكيـف أني لا أتخيـل حيـاتي لـو لم تتواجـدي فيهـا؟

- يبدو أنك أنت الذي لا تعلم قدر حبي لك.

زاد من احتضانه لها بينما يكمل في قنوط:

- أعلـم ذلـك حبيبتـي، ولكـن قلبـي مـا لبـث يرتجـف وهـو يسـائلني في وجـل عـن نهايـة حبنـا هـذا.. أنـتِ تعلمـين كـما أعلـم تمامًـا أننـا نسـير في طريـق نـدرك جيـدًا أنـه

يقودنا إلى الهاوية، وعلى الرغم من ذلك لا نملك أنا وأنتِ غير الاستمرار في الهرولة نحو حتفنا.

انتزعت نفسها من بين أحضانه وهي تقول في رجاء:

- بالله عليك لا تستمر في قول ذلك! إن نهاية حبنا الحتمية هي الزواج ولا شيء غيره. فلِمَ دائمًا تصعب الأمور علينا هكذا وتنظر إلى نصف كوبنا الفارغ؟

قاطعها قائلًا:

- هذا إن كان هناك كوب من الأساس!

نظرت له في لومٍ فأكمل في ضيق:

- عذرًا يا «فريدة» ولكن عن أي كوب تتحدثين؟ كفاكِ تظاهرًا بأنكِ لا تلحظين كل تلك الفروق التي تفصل بيننا، إن كنتِ تفعلين ذلك عن عمد لتخففي عني واقع الأمر فاسمحي لي أن أخبركِ بأن كل محاولاتكِ تلك دون جدوى.

اقتربت منه ولمست يده في حنانٍ قائلة:

- لِمَ تستمر دائمًا في التقليل من شأن نفسك يا «أكرم»! ألا ترى أنك معيد بالجامعة، وينتظرك مستقبلٌ مشرقٌ!

ناقشت رسالة الماجستير خاصتك وفي سبيلك لمناقشة الدكتوراه لتصبح أستاذًا جامعيًّا يشار إليه بالبنان.

رفع يديه وأمسك كتفيها بقوة قائلًا في سخريةٍ مريرة:

- أتصدقين حقًّا تلك الشعارات التي ترددينها الآن؟ أي أستاذ جامعي؟ وأي أيادٍ تلك التي سترتفع لتشير إليَّ؟ أنا في نظر والدك ومن هم مثله من أصحاب المقام الرفيع لست سوى موظفٍ يتقاضى قروشًا زهيدة لن تكفي لملئ خزان وقود سيارتكِ، موظفٌ فقيرٌ وابن رجلٍ فقيرٍ كان يعمل موظفًا هو الآخر، ولكن بإحدى مصالح البريد، أما عنكِ فأنتِ ابنة «الأسيوطي» أشهر رجل أعمال في مصر كلها، تعيشين في قصركِ هناك في أبهةٍ تامة وترفلين في نعيمٍ مقيم، بينما أحيا أنا في حي «الجمالية» في بيتٍ قديمٍ مكونٍ من خمسة طوابق ورثه والدي وأشقاؤه عن والدهم -رحمه الله- لا نملك من حطام الدنيا سواه وسوى تلك الجنيهات المعدودة، التي تأتينا من إيجار الشقق المخصصة لنا حسب ميراثنا الشرعي، لن أستطيع توفير مسكن ملائم لك بطبيعة الحال، فهل تعتقدين أن والدك سيقبل بأن تأتي

ابنتـه الحبيبـة لتسـكن معنـا هنالـك في «الجماليـة»! إن كنـتِ تظنـين ذلـك فأنـتِ واهمـة.

اسـتبد بـه الانفعـال فابتعـد عنهـا قليـلًا وأسرع باسـتخراج حافظـة نقـوده مـن جيـب بنطالـه، أخـرج منهـا بطاقـة هويتـه الشـخصية وأشـهرها أمـام عينيهـا صائحًـا:

- أتصدقـين تلـك العبـارة المدونـة هـا هنـا بـأني معيـد في الجامعـة؟ إنهـا لا تعنـي شـيئًا بالنسـبة لوالـدك، بـل إننـي ككل لا أعنـي لـه شـيئًا، أنـا بالنسـبة لـه غـير مرئـي، لا وجـود لي عـلى الإطـلاق، إن وجـودي الحقيقـي بالنسـبة للوسـط الـذي نشـأتِ أنـتِ فيـه لا يكمـن في ماهيـة بياناتي المدونـة هنـا، إنـما يكمـن في حجـم أرصـدتي في البنـوك، في عراقـة نسـبي وامتـداده ليصـل إلى حيـث أتيتـم جميعًـا.. أمـا أنـا بوضعـي الحـالي فـلا أسـاوي أكثـر مـن تلـك القطعـة البلاسـتيكية التـي صنعـت منهـا هـذه البطاقـة.

قالهـا ثـم ألقـى بهويتـه الشـخصية بعيـدًا، وجلـس في إنهـاكٍ يرتجـف جـراء كل ذلـك الانفعـال الـذي تملكـه، كانـت هـي صامتـة حتـى الآن ولكنهـا بمجـرد انتهائـه انهـارت تمامًـا، سـقطت عـلى الأرض وأخفـت وجههـا بيديهـا وبـدأت في الانتحـاب،

انتفضت روحه من الداخل إثر انهيارها هذا، فأسرع إليها وأمسكها من كتفيها في حنان وأنهضها معتذرًا لها مستحلفًا إياها أن تسامحه وأن تقدر ما أوصله إلى حالته تلك، بدأت دموعه تنهال هو الآخر، فأسرعت باحتضانه قائلة:

- أتبكي يا حبيبي! بالله لا تفعل، لا يوجد في العالم أجمع ما يستحق أن تذرف من أجله هذه الدموع الغالية.. لا أريد أن أراك على تلك الحالة مرة ثانية، عِدني بألا تعود لذلك القول مرة أخرى، ولتعلم جيدًا أني لا يهمني كيف سينظر إليك والدي، ولا أكترث لآراء من حولي، كل ما يعنيني في هذا الوجود هو أنت.. أنت فقط.

أرجعت رأسها للوراء ونظرت في عينيه قائلة في همس:

- أنا لن أكون لأحدٍ غيرك أيًّا من كان، هل تعي قولي هذا؟ أعدك بأنه لن يمسني شخص آخر غيرك أبدًا.. أبدًا يا حبيبي.

لفهما الصمت للحظاتٍ كانت كافية ليستشعر كل منهما لفح تلك الحمم التي تتخفى تحت رداء تعقلٍ التحفا به طويلًا، اقترب بوجهه منها.. لامس وجنتها بشفتيه في ارتعاد، فانتفضت توقًا إليه، أغلق عينيه في انتشاء، ثم على حين شوقٍ

أطبق بشفتيه على شفتيها فسحب بساط تماسكها بغتة.. غابا معًا في قُبلةٍ مُسكِرة ثم فتح عينيه في صمتٍ صارخٍ؛ ليطلق سراح نظراتٍ تتحدث من شدة وطأة اشتهائه لها، تتابعت أنفاسه باحتدام؛ فأضرمت جذوة نيرانها اشتعالًا، احتوتها زفراته كإعصارٍ حانٍ.. أنبأتها رفات عينيه بأنه لا سبيل لهما اليوم من الإفلات من جريان سيل العشق، ها هو الطوفان قادمٌ من بعيد.. يناديهما معًا ليلبيا النداء، لينجرفا، وها هي نبضاته قادمةٌ هي الأخرى تبغي خلاصًا لها من أسرٍ كبلها زمنًا، ناداها قرع اللهف بداخله أن هيا..

أغلقت له عينيها في إذعان..

فأخذها.. أخذها كاملة، ولم يتمهل.

***

نص خطاب موجه من «رشيدة» إلى «عالية»

حبيبتي «عالية».. تحية عطرة محملة بأنسام رائحة دبي أرسلها لكِ ولكل من عندك هناك في مصر.

أولًا.. اشتقتُ إليكِ كثيرًا حبيبتي، مضى أكثر من شهرٍ منذ مكثتُ هنا في فرع مستشفى «كينجز كولدج» (KCH) في «دبي هيلز» ونحن لم نر بعضنا، إن كنتِ تسألين عن حالتي الصحية فأنا في خير حال، أخبرني د. «جوناثان بايرن» طبيبي الخاص الذي استقدمته إدارة المستشفى هنا من فرعها الرئيسي في «لندن» -لمتابعة حالة قلبي الصحية- بأنه قريبًا جدًّا سأتمكن من العودة إلى مصر... أنتِ تعلمين كما أخبرتك سابقًا أن هذا الطبيب ذائع الصيت يقوم بمداواة مرضاه بعلاجاتٍ جديدة لا تتطلب الجراحة، وهذا ما جعلني أصر على أن يشرف بنفسه على متابعتي صحيًّا مهما كلفني الأمر من أموالٍ طائلة، لذا فلا تقلقي من جهتي، ولا تتعجبي إن وجدتِني بعد أيام قلائل أحادثكِ من الإسكندرية، كذلكِ لا

تجعلي الذهول يستبد بكِ إذا ما جئتِ لزيارتي ورأيتِني أتقافز أمامكِ كالأطفال، فهذا الطبيب يبدو حاذقًا ماهرًا متمكنًا من أساليبه، تمامًا كما قالوا عنه، هذا ما استجد من أحوالي الخاصة، أما بعد فلكِ أقول.. لا ليس كذلك يا «عالية»، ليس كذلك على الإطلاق.

تلك هي إجابتي على شطر سؤالكِ الأخير في خطابكِ السابق لي.. دعيني أعيدها عليكِ للمرة الرابعة بعد الألف على ما يبدو، ليس كذلك حبيبتي، ولم يكن كذلك قط.

أتعلمين أن سؤالكِ هذا قد طُبِعَ داخل أودية عقلي بشطريه الاثنين من كثرة ما قمتِ بطرحه على مسامعي طوال الأربعة عشرة شهرًا المنصرمة.. سواء في خطاباتنا المتبادلة، أو عبر الهاتف عندما نتحدث سويًّا، أستطيع إعادة ترديده عليكِ بمنتهى اليسر دون حاجة مني إلى استظهاره.. (أتظنين أن «دينا» بكل تلك الحقارة بالفعل؟ وإن كانت هي كما صرحت «سلمى» فمن المؤكد أنها استقت تلك الجينات مني أنا.. أليس كذلك)؟

أرأيتِ!! ها أنا قد أمليتكِ نص سؤالكِ المزدوج دون أن أخطئ في حرفٍ واحدٍ منه..

أقسم عليكِ بالله يا ابنة العم بأن تترفقي بنفسكِ قليلًا، لا أعلم لِمَ تسرعين إلى جلدها هكذا دائمًا؛ فتلصقين تلك النقيصة بكِ وأنتِ أبعد ما تكونين عن أي انتقاص.

لقد ربينا معًا حبيبتي.. أذكر طفولتكِ بحكم نشأتنا سويًّا، وأعرف صفاتكِ حق المعرفة كما أعلم تفاصيل راحة يدي، أنتِ لم تخطئي في أي شيء مما يدور بخلدكِ، فلا أدري لِمَ تصرين على كونكِ آثمة؟ ألأنكِ قد أحببتِ «وجيه» أخي وابن عمكِ؟ حسنًا حبيبتي! ومن في فتيات العائلة لم تفعل؟ كلهن قد أحببنه قديمًا.. أم لأن الغضب قد احتلكِ شهورًا وقت أن تقدم «وجيه» لخطبة «فايزة» شقيقتكِ؟ إن ما حدث معكِ حينها كان أمرًا طبيعيًّا للغاية حبيبتي، أوَ تستكثرين على نفسكِ الشعور بالغضب ولو لبعض الوقت؟ أتستبعدين على مراهقة مثلكِ في ذاك الحين إحساسها ببعض الكراهية تجاه شقيقتها التي استلبتها حبيبها رغم علمها بتعلق قلبكِ به؟ تلك الشقيقة التي يعلم جميعنا أنها لم تكن على درجة عالية من النقاء في تعاملاتها مع الجميع خاصة في تعاملها مع والديكِ؟ أتنكرين أن «فايزة» كانت كثيرًا ما تلتجئ إلى إصابتها بمرض السكري في مرحلة الطفولة لتستدر عطف

والديكِ عليها دونًا عنكِ وعن سعيد وفاطمة والدة «هاشم» -رحمها الله- فتتصنع الوهن والإعياء لاجتذابهما نحوها وتحقيق مطالبها كافة؟ أم أنكِ قد نسيتِ دهاءها ولجوءها إلى الحيلة لتحصل على ما تريد بغض النظر عن تأثير نتائج ما ترغبه على أقرب الأقربين لها، وأن ذلك كان هو منهجها دائمًا في الحياة! أثق بأنكِ ما زلتِ تذكرين حتى لو ادعى قلبكِ النقي عكس ذلك.

أخبرتكِ كثيرًا من قبل بأني على يقين تام من أن «فايزة» -رحمها الله- لم تفكر في الزواج من «وجيه» إلا لأنه سيحقق لها معيشة رغدة لم تكن لتحلم بها يومًا، ولأنها علمت أن نجمه كان في سبيله للصعود، ولكي تتمتع أيضًا بكل تلك الرفاهية التي سيحققها لها كونه ذراع والدي الأيمن والمتحكم الرئيسي في كل أملاك العائلة، خاصة بعدما أضاع والدكِ أغلب ميراثه من جدي في مشاريع لم تأت عليه بما كان يرجوه منها، حقًّا إن أبي أسرع بضمه إلى الشركة وجعله مديرًا لها، ولكنه في نهاية الأمر لم يكن هو الوريث الشرعي لكل تلك الأموال، فما كان منها إلا أن نسجت شباكها على «وجيه» باعتباره الحصان

الرابـح، فاسـتقطبته صوبهـا بأسـاليب لا مجـال لذكرهـا حاليًـا، فهـي قـد أصبحـت بـين يـدي الله ولا تجـوز عليهـا سـوى الرحمـة.

أعلـم أنـكِ سـتقاطعينني الآن قائلـة (ولكنـي تمنيـتُ اختفاءهـا مـن عـلى ظهـر البسـيطة ذات يـومٍ ليلحظنـي «وجيـه».. تمنيـتُ موتهـا في نوبـة غـيرةٍ اقتنصتنـي بأنيابهـا ولاكتنـي بـين فكيهـا لشـهورٍ عـدة لأحظـى بـه دونهـا، بـل إني قـد تجـاوزت الأمنيـات بمراحـل وبـدأت أفكـر في كيفيـة التفريـق بينهـما وحِكـت الكثـير مـن الخطـط فيـما بينـي وبـين نفـسي لأبعدهـا عنـه، فـأي شـقيقة أنـا)!

حسـنًا حبيبتـي! لـن أجادلـكِ في ذلـك، فأنـتِ قـد أخطـأتِ حقًـا عندمـا تمنيـتِ هـذا الأمـر وأغرقـتِ نفسـكِ فيـه لليـالٍ طـوال، أخطـأتِ كذلـك عندمـا سـمحتِ لغيرتـكِ بـأن تأخـذكِ بعيـدًا عـن طبيعتـكِ فأصبحـتِ تفكريـن في التفريـق بينهـما، ولكـن كل هـذا في النهايـة لا يعـدو كونـه مجـرد تخيـلاتٍ لم تخـرج لحيـز التنفيـذ، واسـتدركت أحاسيسـكِ بعـد ذلـك، فبـالله عليـكِ لا تطئـي بقدميـكِ مسـتنقع الذكريـات الآسـن هـذا، إن هـي إلا أمنيـة واحـدة فاسـدة وسـط بسـتان صـلاح قلبـكِ، أمنيـة أسرعـتِ بزجهـا بعيـدًا وأوصـدتِ دونهـا مغاليـق روحـكِ، صحيـح أنـكِ ظللـتِ ترفضـين الاقـتران بـأي شـخصٍ آخـر لأنـكِ لم تسـتطيعي تصـور

أنه بإمكانكِ استكمال حياتكِ مع رجلٍ غير «وجيه»، ولكن ذلك أمر خاص بكِ وحدكِ، حقٌّ قد كفله لكِ الله، فمن منا إذًا يستطيع إنكار هذا الحق عليكِ؟ يكفي أنكِ استجمعتِ شتات نفسكِ سريعًا وكتمت مشاعركِ داخلكِ وتمنيتِ لهما الخير، لم تُعلمي أحدًا غيري بالأمر؛ كَوني ابنة عمكِ وأقرب صديقاتكِ إليكِ.. حتى أراد الله لها أن ترحل عن الحياة تاركة خلفها أربعة أطفالٍ صغارٍ وزوج في أوج عنفوانه، كان لا بد له من الزواج مرة أخرى في نهاية الأمر، فما الضير في أنه قد تزوج شقيقة زوجته الراحلة والتي كانت لم تتزوج بعد؟ لقد فعلها الكثيرون من قبلكما، والذين تشابهت ظروفهم معكما ولم ينقلب عالمهم رأسًا على عقب ولا قاموا بتقريع أنفسهم هكذا، فأي جريمة قد اقترفتِها بالله عليكِ في إقدامكِ على الاقتران بزوج شقيقتكِ المتوفاة واحتضانكِ لأطفالها وحنوكِ عليهم! حتى إنكِ لم تشعريهم ولو للحظة واحدة بأن أمهم قد فارقت الحياة، وأي عيبٍ في أن «وجيه» قد أحبكِ عقب زواجكما! أخبريني أولًا.. من ذا الذي قد يقترب منكِ هكذا ولا يجد نفسه غارقًا في حبكِ حتى أذنيه! إن الجميع من حولنا دائمًا ما يشهدون لكِ بأنكِ معشوقة العائلة والأصدقاء

والجيران، ثم ألا يكفي أنه قد اشترط عليكِ عدم الإنجاب لأنه لا يريد أطفالًا آخرين يشاركونه في حب أبنائه من «فايزة»! وأنكِ قد سارعتِ بالموافقة على الرغم من مناشدتي لكِ التمهل وقتها وإعادة التفكير في الأمر، لقد ضحيتِ بحلم كل امرأةٍ في أن تنجب أبناءً يخرجون من رحمها هي لتعتني بأولاده هو.. فقط لأنكِ تعشقينه، ألا ترين في فعلته هذه جرمًا فادحًا قد اقترفه في حقكِ! ولكن ماذا أقول وقد قمتِ بمشاركته في ارتكاب تلك الجريمة بنفسٍ راضيةٍ وقلبٍ مذعنٍ.

أليس هو شقيقي الوحيد! ولكن دعيني أخبركِ يا ابنة عمي أن من كانت مثلك لم يكن لها أبدًا أن تقترن برجلٍ مثله! إنسان لا يفكر إلا في مصلحته هو فقط، شخص لا يتردد في أن يبتز مشاعر الآخرين ليصل لما ينتويه، كانت «فايزة» -رحمها الله- تليق به للغاية، أعلم أن قولي هذا سيغضبكِ، ولكنكِ تعرفينني جيدًا، لا أستطيع أن أخفي عنكِ ما يدور بداخلي.

لذا أقول لكِ إن «دينا» لو فعلت ذلك «وإن كنتُ أشك في هذا» فهي لم تستق تلك الجينات منكِ أنتِ، وإنما استقتها من والدتها -رحمها الله- أو من والدها، وربما منهما

معًا، صدقيني يا حبيبتي.. لو أنها حقًّا قد أقدمت على تلك الفعلة وفرقت بين شقيقتها وبين الشخص الذي كانت تعلم مسبقًا بحبها له، فلا مجال هنا لمقارنتها بكِ، يمكننا أن نضاهي فعلتها هذه بما فعلته والدتها معكِ قديمًا.

أعلم أنكِ لا تحبين ذكر ذلك الأمر، وأنكِ منذ رحيل «فايزة» قد أسقطتِ ما حدث بينكما من ذاكرتكِ تمامًا، وكأن رحيلها هذا قد محا ما اقترفته في حقكِ عندما أسرعت واجتذبت «وجيه» صوبها، وأني حقًّا لأتعجب لموقفكِ هذا، فذلك أمر لا أستطيع استيعابه حتى الآن، رغم معرفتي بمدى نقاء قلبكِ، وبعمق مشاعركِ تجاه كل فردٍ من المقربين منكِ، ورغم تكرار قولك لي بأنكِ لا تذكرين لها إلا كل خير، تلك قناعاتكِ الخاصة على أي حال، والتي تنافي قناعاتي تمامًا، فالموت لا يغيِّر من حقيقة الأشخاص، فالذي عاش لئيمًا خبيث المعشر سيظل في نظر من حوله هكذا حتى بعد رحيله، هو شأنكِ الخاص على أي حال، وإن كان تناسيكِ للحقيقة لن يغير من واقع الأمر شيئًا، ولكن محاولاتكِ لطمس حقيقة «فايزة» بسبب رحيلها عن الحياة لا يتبعه بضرورة الحال إسقاط كل نقائصها عليكِ، لذا أقول لكِ إن

كان ثمة أمر ما تشتركان فيه أنتِ و«دينا» فأنتما تشتركان في النية فقط، أنتِ وهي قد نويتما وعقدتما العزم على أمر ما، غير أنها هي قد نفذته بينما أنتِ قد أسرعتِ بالانتصار لطيبة قلبكِ ورقة مشاعركِ، هذا إن كانت «دينا» حقًّا قد فعلت ذلك.

واللهُ يا حبيبتي لا يُحَاسبنا على ما انتوينا فعله، ثم أعرضنا عنه امتثالًا منا لأوامره، إنما يُحَاسبنا فقط على ما أقدمنا على فعله بكامل إرادتنا الحرة.

فكُفِّي إذًا عن ذلك التقريع الذي تُغرقين نفسكِ بين جنباته ليل نهار منذ أن سمعتِ «سلمى» تخبر شقيقتها بذلك الأمر، توقفي عن جَلد ذاتكِ بسياط لومٍ لا تستحقينه، فلو أننا اعتبرنا ما أحسستِه وتمنيته منذ زمنٍ ذنبًا وخطيئة، فها أنتِ قد كفرتِ عن ذلك وقُضِيَ الأمر، بل إنكِ في رأيي الخاص قد كفرتِ عن ذنوبٍ لم ترتكبيها من الأساس، ولكن لأني أعرفكِ جيدًا دعيني أخبركِ أمرًا أوقن أنكِ ترفضين التصريح به علانية أمام نفسكِ، لتضفي على زوجكِ سمات رب العائلة واصل الرحم، أنتِ تعرفين قدر الاهتراء الضارب أطنابه في نسيج علاقتي مع «وجيه»، فإن كان هناك ثمة شيء لا

يـزال يجمـع بيننـا حتـى الآن فهـو أنـتِ يـا «عاليـة»، أنـتِ شـعرة «معاويـة» خاصتـي والتـي مـا فتئـت تجذبنـي صوبـه منـذ زمـنٍ بعيـدٍ، ولـولا وجـودكِ كانـت علاقتـي بـه سـتندثر كـما اندثـرت مشـاعر الأخـوة التـي كانـت تربـط بيننـا، لـن أضـع أبنـاءه في ذات القـارب معـكِ، فسـواء أكنـتِ أنـتِ موجـودة في حياتهـم أم لم تكـوني بينهـم، فعلاقتـي بهـم كانـت سـتظل قويـة، هـم أبنائـي الذيـن لم أنجبهـم، عوضنـي بهـم الله مـع «هاشـم» وابنتـيّ «سـعيد» عـن عـدم قـدرتي عـلى الإنجـاب..

لـذا فحبًـا لله! توقفـي عـن تكـرار قـول ذلـك الأمـر، وتذكـري جيـدًا أننـي أراكِ مـن الداخـل كـما أرى نفـسي، نحـن متطابقتـان تمامًـا في الصفـات يـا ابنـة العـم، وكأننـا توأمـي روح، نحـب ذات الأشـياء ونجـزع مـن نفـس المواقـف، نسـتمتع بكوننـا متفردتـين عـن كل مـن حولنـا، نفعـل مـا تهـواه روحانـا حتـى لـو بـدا للكثيريـن منقرضًـا وغـير مألـوفٍ، خـير دليـلٍ عـلى ذلـك هـو أننـا مـا زلنـا نعشـق تبـادل الخطابـات الورقيـة كلـما سـافرت إحدانـا إلى الخـارج لفـترة طويلـة، عـلى الرغـم مـن تحدثنـا عـبر الهاتـف لمـرات قـد تصـل للخمـس كل أسـبوع، ولكننـا كـما تعرفـين نحـب ترتيـب أفكارنـا عـلى الأوراق، نأتنـس

بإعادة قراءتها مراتٍ ومرات، نبتسم عندما نتذكر كل تلك الذكريات التي سطرناها في خطاباتنا سويًّا، نعتبرها صكًّا زمنيًّا يخبرنا عندما نطالعها بما قد تنسينا إياه دوامات الحياة.

أما عن شق سؤالك الأول فدعيني أكررها عليكِ أيضًا، بأن قلبي لا يسعه استيعاب أن «دينا» قد تفعل ذلك، وأنا قد اعتدتُ منذ زمنٍ أن أتبع ما ينبئني به قلبي، حتى وإن كان كلام «سلمى» يؤكد عكس يقيني هذا. فإن كنتِ أنتِ تميلين لتصديق قول «سلمى» فلتقطعي نسيج الشك بسيف اليقين ولتتحدثي مع «دينا» في الأمر كما طلبت منكِ سابقًا، صدقيني إن ذلك سينهى هذا الصراع الذي يدور بداخلك، أنتِ لن تسأليها بشكلٍ صريحٍ بالطبع، وإنما يمكنكِ فعل ذلك عن طريق تلميحاتٍ أو بضع كلمات تلقينها في طريقها من وقتٍ إلى آخر.

وسيمكنكِ استنتاج الحقيقة من تعبيرات وجهها وردود أفعالها، ولكني أعلم أنكِ ستعزفين عن فعل ذلك خشية إثارتكِ للقلاقل بينك وبينها من جهة، وبينها وبين «فريدة» من جهة أخرى، لذا أرى أن خير ما تفعلينه في هذا الأمر هو أن تحاولي نسيانه وعدم التفكير به.

أما عما استجد من حال «فريدة» منذ ما يقرب من أسبوعين من شرودٍ وميل إلى العزلة والرغبة عن الطعام، فلا أظن أن ذلك يعود إلى كونها لا تزال تميل إلى «هاشم» كما تقولين، قلبي ينبئني بأن هنالك أمرًا ما غير ما ذكرتِ، لتقتربي منها ولتحاولي استيضاح الأمر، افعلي ذلك بصبرٍ ورويةٍ، خصوصًا وأنها قد أصبحتِ كثيرة الصمت كما أخبرتني في خطابكِ السابق.

أخيرًا.. اهتمي بنفسكِ من أجلي، وقدريها حق قدرها فهي حقًّا تستحق. قبلاتي لكِ ولجميع من عندكِ هناك.

عفوًا.. نسيتِ إخباركِ أمرًا ما..

ما زلتُ أحبكِ يا ابنة العم.

المخلصة لكِ إلى الأبد /

رشيدة

الفصل السابع

- هل سمع أحدكم تلك الطرقة الخافتة على باب الحجرة؟

صهٍ... أنا لا أسألكم لتتناقشوا.. أسمعتموها أم لا؟ لتبتلعوا ألسنتكم للحظاتٍ إذا تكرمتم... ماذا تقول يا هذا! أنا التي يجب عليَّ ابتلاع لساني وإبقاء فمي مغلقًا لبعض الوقت!! يا لك من سفيهٍ وقح تحتاج لمن يشرح لك كيف تتعامل مع النساء، خاصة لو كُنت مثلي من الطبقة المخملية الراقية. يبدو أن سلوكك يحتاج للكثير من التقويم، ولكن هذا ليس هو مجالنا على أي حال، لتصمتوا الآن قليلًا لنتمكن من تبين الأمر.

أرأيتم؟ إن هناك من يدق الباب بالفعل، ليذهب أحدكم ليرى من الطارق... يبدو أنه أحد أمناء الشرطة، وما هذا الذي يحمله بين يديه يا تُرى؟ أتراها أكياسًا بلاستيكية كما أظن؟ بالله لا تتكأكؤوا عليه هكذا ولتأتوني به في الحال... مرحبًا يا هذا! يمكنك وضع ما تحمله هنا فوق تلك المنضدة، انتظر.. لتقم بتنظيفها أولًا، هاك بعض المحارم، حسنًا.. يكفي هذا، فلتضعه إذًا ولتنصرف الآن.

لنرَ ما تحتويه هذه الأكياس، امم.. يا للرائحة الشهية!! إنها وجبة ساخنة كما ترون، وجبتي المفضلة إذا ما أنصفنا.. يا لـ «فؤاد الألفي» هذا!! إنه لا ينسى شيئًا على الإطلاق؛ لذا فهو يستحق ذلك المبلغ الفلكي الذي يمنحه له أبي نظير إتقانه لأدق التفاصيل.. أليس كذلك؟ ولكن ما لكم تحدقون هكذا في الطعام وتجدحونني بتلك النظرات؟ ماذا تظنون بي حقًّا؟ أمعدومة المشاعر أنا أم ماذا؟ أنا لن آكل كل هذا الطعام وحدي إن كنتم تعتقدون ذلك. هيا يمكنكم حمل ما ترغبون به من الطعام، ثم لتذهبوا لتجلسوا بعيدًا قدر ما استطعتم، ستجدون هنا أيضًا العديد من العصائر المعلبة، والكثير من زجاجات المياه المعدنية.

لنأخذ استراحة قصيرة نتناول خلالها الطعام، نعود بعدها لنستأنف رحلتنا من جديد، لا تخشوا من تداخل الأحداث، فأنا أعلم أين توقفنا جيدًا، ولكن بالله عليكم لا تصدروا تلك الأصوات المقيتة وأنتم تأكلون! تذكروا أن معكم هنا فتاة رقيقة قد تصاب بالغثيان من جراء مشاهدتكم تفعلون ذلك، وهذا الذي يتجشأ هناك في صخب.. ألا تبًّا له! لتخبروه أن يكف عن فعل ذلك، وأنت أيضًا يا هذا... لِمَ تدسُ إصبعك هكذا بداخل فمك وكأنك في سبيلك لاستخدام هذا الإصبع كفرشاة أسنان؟ يا وَيْلي! أي ليلة تلك! سأصاب بالجنون عما قريب، لتنتهوا سريعًا من طعامكم، لن أقضي الليلة كلها أشاهدكم بينما تأكلون، فلا يزال لدينا الكثير لنحكي عنه..

آنتهيتم أم ماذا؟ حسنًا حسنًا.. لتنصتوا جيدً الآن، فالأحداث ستبدأ في الاشتعال عما قريب..

ما زلنا معًا إذًا.. وما زالت عائلة الأسيوطي تضخ مياهها المقدسة أسفل جسوركم.

***

إنها التاسعة وعشر دقائق، يبعد «وجيه» نظره عن ساعة الحائط المثبتة أعلى الجدار المواجه لمكتبه بالقصر، يُحَدث نفسه بأن ذلك الفتى قد تأخر لعشر دقائق كاملة عن ميعاده معه، لم يعتد على أن يتأخر الناس عن موعد تم إبرامه لهم معه أيًّا ما كانت مراكزهم، عشر دقائق ليست بالوقت الطويل حقًّا ولكننا هنا على أرض «الأسيوطي» وتسري علينا قواعده كاملة، أبدى تأففًا وهمَّ باستدعاء «فريدة» عندما شاهد على شاشة كاميرا المراقبة الموجودة أعلى سطح مكتبه تلك السيارة -صغيرة الحجم قديمة الطراز- التي توقفت قرب البوابة الخارجية للقصر، رأى أحد أفراد طاقم الأمن يقترب منها ويتبادل بعض الكلمات مع قائدها قبل أن يضغط على الزر الخاص بفتح البوابة سامحًا له بالدخول.

«أكرم المنزلاوي.. لنرى ماذا تريد إذًا» هكذا حدث «وجيه» نفسه، كانت «فريدة» قد أخبرته برغبة أحد المعيدين لديها في الكلية في رؤيته لأمرٍ مهمٍ، لهجتها وارتباكها واختلاف طريقة تعاملها مع كل من حولها في الآونة الأخيرة أقلقته قليلًا، ولكنه لم يلق بالًا إلى كل ذلك، غير أنه أرسل من يتحرى عن «أكرم» هذا فكان ما بلغه من أخبارٍ يتلخص

في كونه قد عُيِّن معيدًا منذ عدة سنوات في ذات الكلية التي تدرس بها ابنته، لا غبار على أخلاقه، يقطن بأحد الأحياء الشعبية، ذو إمكانيات محدودة لذا يعمل مساءً لبعض الأيام بمكتب محاماةٍ تابعٍ لأحد أساتذته في الجامعة، كانت السيارة قد اجتازت ممر الحديقة المؤدي إلى البوابة الداخلية للقصر الآن، ها هو «أكرم» يخرج منها أمام ناظريه ويتجه ليصعد السلم نحو القصر.

دق «وجيه» الجرس المثبت على أحد جانبي المكتب إيذانًا منه بدخول «فريدة» و«باسل» اللذان كانا يجلسان في الخارج ليحضرا ذلك اللقاء كما طلبت «فريدة».

في الجهة المقابلة؛ حيث الردهة يصل صوت الجرس إلى أسماعها فتنتفض «فريدة» وتسرع بالوقوف، ينظر إليها «باسل» مندهشًا من رد فعلها، فتقترب منه وتمسك بيده في ارتعادٍ وهي تنظر إليه نظرة لم يستطع تفسير معناها، تذكر قولها له هذا الصباح عندما حادثته عبر الهاتف:

- لا تتأخر في المجيء اليوم أرجوك، لا تعلم أهمية وجودك معي في هذا اللقاء.

كان صوتها يرتعش كارتعاشة أصابعها وهي تقبع بين يده الآن، ضغط على يدها وكأنه يطمئنها بأنه معها وبألا تخاف، اقتربا من الباب فطرقه «باسل» حتى أتاهما صوت «وجيه» من الداخل يدعوهما للولوج؛ فدخلا.

- لا تغلقا الباب خلفكما حتى يأتي هذا الـ «أكرم».

قالها «وجيه» في تأففٍ، فازدردت «فريدة» لعابها وهزت رأسها، أشار إليهما بالجلوس فجلسا على الأريكة المجاورة للمكتب.

لم تمضِ دقيقة حتى أتى الخادم ليعلمهم بقدوم الضيف.. بخطواتٍ مترددةٍ خطا «أكرم» إلى الداخل، ألقى عليهم السلام في صوتٍ خفيضٍ ثم تنحنح قليلًا، ومد يده ليسلم على «وجيه» الذي صافحه وهو جالس في مكانه، ثم أشار إليه ليجلس على المقعد أمام المكتب؛ ففعل.

ران الصمت عليهم لعدة دقائق حتى قطعه «وجيه» قائلًا:

- أبلغتني «فريدة» ابنتي أنك تريد مقابلتي لأمرٍ مهمٍ.

كان «أكرم» منكس الرأس وقتها، فرفع رأسه قليلًا ثم قال:

- نعم! هو كذلك يا سيدي.
- حسنًا ما هو هذا الأمر المهم الذي طلبت ملاقاتي من أجله ؟
- لتسمح لي أولًا بأن أعرفك بنفسي..

قاطعه «وجيه» قائلًا في ضجر:

- لا تتعب نفسك في ذلك، إن لدي كافة المعلومات الخاصة بك، لتدخل في صلب الموضوع مباشرة إذا تفضلت.

أطرق «أكرم» واجمًا لبرهة، بينما حط طائر الصمت بجناحيه الثقيلين قاتمي اللون فوق رأسي «باسل» و«فريدة» فمنعهما من الكلام، طال السكوت للحظاتٍ تالياتٍ حتى استبد به الخجل.. أرأى أحدكم من قبل سكوتًا قد تخصبت وجنتاه حياءً! لا أظنكم قد شاهدتموه من قبل، ولكن ها هو قد فعلها أمامكم، فلِمَ تلك الدهشة التي ترتسم على وجوهكم إذًا! أليس في حضرة «الأسيوطي» تجتمع الأعاجيب كافة!

ها هو «الأسيوطي» يصفع بزخم نبراته وجنة السكون المواجهة له ويقول متبرمًا:

- أظنك تعلم جيدًا أن وقتي ثمين للغاية، لذا فإن كنت قد جئت لتطلب مساعدة لك أو لأحد أقاربك فلتفصح عن ذلك، وكفانا إهدارًا للوقت.

اعتلى الذهول وجه «أكرم» فألجمه عن الكلام، بينما أسرعت «فريدة» لتنهض من مكانها وتجلس قبالته على المقعد الآخر المواجه للمكتب قائلة لوالدها في صوتٍ حاولت التحكم في ارتعادات نبراته:

- ما هذا الذي تقوله يا أبي! إن «أكرم» لم يأت إلى هنا طالبًا المساعدة فهو لا يحتاج إليها على الإطلاق، إنه أستاذ جامعي ينتظره مستقبل براق كما لا بد وأنك علمت..

خفضت رأسها للحظات تلتقط فيها أنفاسها الفارة ثم أكملت في تلجلجٍ:

- إنما هو يريدك في أمرٍ آخرٍ.. أمر أرجو ألا تعارضه فيه إن كنت حريصًا على سعادتي.

ازدرد «باسل» لعابه بصوتٍ عالٍ، إن الشك الذي داخَله منذ رأى «أكرم» قد استحال يقينًا خالصًا الآن، قلَّبَ بصره بين شقيقته ووالده الذي يبدو أن أمطار الحقيقة لم تصبه

برذاذها حتى هذه اللحظة، أو ربما أصابته منذ البداية وأنبتت براعمها بداخله ولكنه يخفيها بحكمة تاجرٍ أريبٍ اعتاد ألا يشري بضاعته بثمنٍ بخسٍ.

تأكد له صدق ظنه الثاني عندما وجد والده قد ارتكن بظهره إلى مقعد مكتبه المدولب في هدوء، مطيلًا النظر إلى «أكرم»، شاهرًا سلاح الصمت في وجهه، شاحذًا إياه بتؤدة.. ليرخي الأخير جفونه في رهبةٍ وكأنه يلوذ بهدأةٍ تحميه من أسنة نظرات «وجيه» المصوبة إليه.. أسرع «باسل» ليقول بينما ينهض من مكانه ويقترب من ثلاثتهم:

- لتخبرنا إذًا يا أستاذ «أكرم» بذلك الأمر المهم الذي جئتنا من أجله، فكلنا آذان صاغية.

ابتلع «أكرم» ريقه وقال في صوتٍ حاول جاهدًا استجماع شتاته:

- قد جئتكم اليوم لأطلب الاقتران بالآنسة «فريدة»، أعلم أنني...

لم يستطع استكمال عبارته إذ دوت صرخة «وجيه» المتزامنة مع ضربة قبضة يده لسطح المكتب وهو يصيح هادرًا:

- كفى...

انتفضت «فريدة» من وقع صرخته، بينما ارتج الأمر على شقيقها فلم يحر جوابًا وهو يرى والده ينهض من خلف المكتب ويكمل في هياج:

- لقد استشعرت الأمر منذ البداية عندما رأيت نظراتكما المختلسة، وذلك الارتباك الذي اعترى كليكما، ولكنني كذبت ظني، أتدريان لِمَ؟ لأني استبعدت أن يكون الجنون قد احتلكما لتكما الدرجة، أيستوعب أي منكما ما قيل منذ لحظات هنا! أم أنكما قد أصابكما الخبال وانتهى الأمر.

حاول «باسل» أن يهدئ من روعه قائلًا:

- لتهدأ قليلًا يا أبي ولنسمح له بأن يكمل كلامه ليوضح لنا وجهة نظره..

كان الانفعال قد ضرب أطنابه في أنحاء نفس «وجيه» فصرخ مستنكرًا:

- أي وجهة نظرٍ تلك التي تريدنا أن نسمح له بتوضيحها! أجننت أنت الآخر!

قطع ثورته اقتحام «عالية» لحجرة المكتب متسائلة في جزع:

- ماذا حدث يا «وجيه»؟ لِمَ أنت منفعل هكذا؟

أجابها وجيه ثائرًا:

- أَقْبلي يا «عالية» لتسمعي بأذنيكِ كل هذا الهراء! أقبلي لتري بأم رأسكِ هذا اللا شيء الذي يريد الزواج من ابنتي أنا، أسبق لكِ أن رأيتِ وقاحة تفوق وقاحة هذا الفتى الحقير المعدم الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئًا واحدًا؟ هذا النكرة الذي جرؤ على أن يطمح في مصاهرة «الأسيوطي»... لقد وصلنا إلى نهاية الزمان إذًا، والأعجب من ذلك أن ابنتي أنا تطلب مني أن ألبي له رغبته المأفونة تلك إن كنت حقًّا أتمنى لها تمام السعادة على حد قولها، أتصدقين تلك المهزلة؟

نظرت «عالية» جهة «أكرم» فرأت تواضعَ هيئته مقارنة بهم، فطنت إلى سبب هياج زوجها هكذا فقالت محاولة تهدئته:

- من المؤكد أنك قد فهمت كلامه بطريقة خاطئة، لتهدأ أولًا ولنحاول استيضاحها الأمر.

ثم نظرت إلى «أكرم» الذي استوطنه الوجل متسائلة:

- أليس كذلك يا ولدي!

لم يأتِها فصل القول من جهته هو وإنما جاءها متمثلًا في قول «فريدة» تجيبها في نبراتٍ مرتعدة الأوصال:

- إن ما تقولينه صحيح تمامًا يا خَالَتِي..

اتجهت إليها أنظار الجميع وهي تردف:

- إن «أكرم» لم يأتِ اليوم ليطلب يدي للزواج في واقع الأمر.

خيم عليهم الترقب للحظات قبل أن تتحرك «فريدة» لتقف إلى جوار «أكرم» وتمسك يده في ارتعادٍ قائلة بنظراتٍ زائغة:

- اسمحوا لي بأن أعرفكم بصهركم الجديد «أكرم المنزلاوي»..

عبت أنفاسها في قوةٍ ثم أكملت، وهي تضع يدها الأخرى فوق بطنها في مغزى ينبئهم بالهول القادم..

- نحن متزوجان بالفعل، وننتظر مولودنا الأول في غضون أشهرٍ قليلةٍ..

ألقتها إليهم... ثم استحل النزف أرجاء المشهد في اهتياج، فأغرقهم وسط سيلٍ صديئٍ من حممه القانية.

الفصل الثامن

داخل مكتبه الخاص بمقر مجموعة شركاته يجلس «وجيه» ناظرًا في ارتخاءٍ تامٍ نحو صفحة النيل بالجهة المقابلة عبر الواجهة الزجاجية التي تحتل حائط مكتبه بأكمله، يبتسم في هدوءٍ، في اطمئنانٍ.. كان دائمًا ما يشعر بالرضا عن نفسه في جميع مراحل حياته، حقًّا قد صادفته العديد من الخطوب التي اعترضت طريقه في بعض الأوقات، ولكنه دائمًا ما كان يستطيع تخطيها وتجاوزها بطرقٍ عدة، فأحيانًا كان يلتف من حولها ليصل لضالته على الجهة الأخرى، وفي بعض الأوقات كان يجد طريق الالتفاف محفوفًا بالأشواك فيلجأ للقفز من فوقه ويتجاوزه تمامًا ليعبر إلى ضفته الثانية، وإن استعصى عليه هذا أو ذاك كان يسكن في مكانه قليلًا... يلتجأ لبياتٍ شتويٍّ

موقتٍ، ملتحفًا بقوقعة أفكاره، موقفًا جميع نشاطاته الحيوية؛ فيظن من حوله أنه قد أصابه صقيع ضرباتهم في مقتلٍ، فتجمد وغدا غير قابلٍ للعودة إلى الحياة مرة أخرى، حتى يفاجئ كل من حوله بقيامته من سباته، نافضًا عنه ثلوجًا ظنوها قد أجمته وأودت بمركزه، ولكنه في كل مرة يعود من موتته المؤقتة التي التجأ إليها شاهرًا سيوف انتقامه لينحر عنق توقعاتهم، رافعًا معاول عزيمته ليدك قلاعهم، عاقدًا أنشوطة حبائله ليقتنص رؤوسهم ويقتلعها من فوق قممٍ ظنوا أنهم بإمكانهم اعتلاءها في غيابه. هكذا كان دائمًا.. يعود عندما يتوقع الجميع ألا إياب له.

لم تكن سيطرته على مفردات عالم رجال الأعمال من جراء ضربة حظٍ تأتت له ذات يومٍ أشرقت فيه شموس سنداته واعتلت أسهمه قمة سوق الأموال، أو أنه قد تمكن من ذلك عن طريق الوراثة التي دانت له عقب موت والده «الأسيوطي» الأكبر.. حقًّا إن والده كان من كبار رجال الأعمال، ولكنه كان فقط أحد الكبار وليس أكبرهم، غير أن «وجيه» استطاع بفطرته الثعلبية اصطياد باقي الرؤوس من حوله وإحكام الخناق عليهم، فلم يبق غيره محتلًا الساحة.

أزاح «عزيز منصور» من أمامه بضربةٍ تلو الأخرى حتى رفع هذا الأخير راياته البيضاء جميعها، وأعلن عن تصفيته شركاته هنا، ويقال إنه في سبيله للسفر خارج البلاد ليبتعد عن ذكريات هزائمه المتعددة.. أسقط «عادل ربيع» من عليائه بفضيحة مدوية قام بالتدبير لها بصبرٍ وحنكة؛ فاضطره إلى الهروب من مصر متجهًا ناحية أوربا..

أحكم قبضته حول عنق «إبراهيم فواز» الذي اتُهِم بقتل المطربة «جيهان سليم» والتي كان يشاع أنه على علاقة غير مشروعةٍ بها، فأسهم في إجزال الأدلة من حوله؛ ليضمن بقاءه خلف القضبان لباقي سنوات عمره القادمة.

فعل الكثير مع رجال أعمال سابقين غيرهم، وسيفعل الأكثر والأكثر مع من سيأتي بعدهم إن سولت لهم أنفسهم مزاحمته في السوق.

استنشق الهواء في انتشاءٍ حالمٍ عندما وصل بفكره لتلك الجزئية الأثيرة إلى نفسه محدثًا نفسه قائلًا:

- لم يتبق منهم غير «حامد عصفور» فقط، وها هو قد صار قاب قوسين أو أدنى من السقوط.. لم يعد أمامه غير صفقة

الأغذية الكبرى تلك والتي يسعى خلفها ليتمكن من تحسين وضعه المالي في السوق، لن أجعله يهنأ بالحصول عليها، إن هي إلا دقائق معدودة وأنتزعها من بين أنيابه ليسقط هو الآخر ويدق عنقه. لم يخلق بعد من يستطيع الوقوف لمجابهة «وجيه الأسيوطي».. صغيرًا كان أم كبيرًا.

انتزعه رنين الهاتف من استغراقه وسط يَمٍّ زهوه، فالتقطه متلهفًا معتقدًا أنه «باسل» يتصل ليزف إليه بشرى حصولهم على الصفقة، ولكن ظنه قد خاب عندما وجد الاتصال من «عالية»... نظر إلى الهاتف في ضيق ثم مرر يده على الشاشة ليرفض استقبال المكالمة، إن علاقته بها قد أصبحت متوترة كليًّا منذ ذلك الحادث، لقد حملها المسؤولية كاملة غير منقوصة، إنها لم تستطع الاعتناء بابنته جيدًا، لم تحطها باهتمامها، أهملتها عن قصد، هو يعرف ذلك، فهي ليست أمها الحقيقية، لو كانت حقًّا تشعر أنها ابنتها كما تدعي دائمًا ما كانت تلك النائبة ستحدث لها، ولما قامت تلك العاصفة التي ضربتهم رياحها على غير توقعٍ منذ ثمانية أشهرٍ كاملة، لو أنها فقط أولتها بعض الاهتمام لما زلزلت اتزانه تلك الهزة العنيفة التي ألحقتها بهم «فريدة» عندما أعلنت لهم زواجها

من ذلك الدنيء الذي كان يريد استغلالها واستغلالهم جميعًا معها.

يذكر تمامًا ذلك الذهول الذي أصاب كل من في القصر وقتها، لم يستطع أي منهم تصديق الأمر في البداية، لم يستوعبوا أن «فريدة» تلك العصفورة الملونة التي كانت تقبع داخل القفص الذي أعدوه لها قد تفعل بهم ذلك، أيعقل أن تتزوج دون علمهم! وممن! من ذلك الصعلوك الذي خدعها وأوقعها في شباكه، وغيبها خلف ضلالات ادعاءات حبه لتوقع على ورقة زواج عرفي غير عابئة بردود أفعالهم جميعًا!! والأدهى من ذلك أنها كانت تحمل طفله بين أحشائها، من ذا الذي يستطيع تصديق هذا الأمر! «فريدة» الوديعة الخاضعة تترك حقيرًا كهذا يلمسها باسم الخديعة مستندًا إلى ورقةٍ دنسةٍ ليلوث بها شرفه ويستبيح عرضه كما فعل!

اقتحمته ذكريات تلك الأيام، دوامات مهلكة اجتاحت هدوء القصر الذي كانوا يرفلون في سلامه: مشهد ارتجاف «عالية» وصراخها مستنكرة ما حدث.. الذهول الذي احتل جنبات «باسل» فأخرسه.. إحساسه هو نفسه بانعدام قدرته على الحركة عقب سماعه لتصريحها المشؤوم، وكأنه قد أصابه

الشـــلل.. اقتحـــام «دينـــا» و«ســـلمى» لأرض المشـــهد في التيـــاع.. مغـــادرة «أكـــرم» وســـط رجـــاءات «دينـــا» لـــه ليرحـــل.. انتفاضتـــه المفاجئـــة.. منظـــره وهـــو يكيـــل الـــركلات لـــ «فريـــدة».. يصفعهـــا في جنـــون.. «عاليـــة» وباقـــي أبنائـــه يســـارعون ليحولـــوا بينـــه وبينهـــا، ولكنـــه يقتحـــم صفـــوف تماســـكهم ليحكـــم ســـيطرته عليهـــا أكثـــر ويوســـعها ضربًـــا.. نجاحهـــم أخـــيرًا في انتشـــالها مـــن بـــين براثنـــه بأعجوبـــة.. انهيـــاره أرضًـــا محـــاولًا اســـتجماع شـــتاته.. مشـــهد آخـــر يقتحـــم ســـماء فكـــره ليمطـــره بوابـــلٍ جديـــدٍ مـــن الذكريـــات، هـــا هـــو ينقـــض عليهـــا في حجرتهـــا، يـــصرخ مســـتعلمًا عـــن مـــكان احتفاظهـــا بورقـــة زواجهـــا العـــرفي، ترتجـــف في هلـــعٍ وتشـــير إلى درج مكتبهـــا.. إنـــه يـــسرع إليـــه.. يحـــاول فتحـــه في لهـــف دون جـــدوى، يبـــدو أنـــه مغلـــقٌ، يلتفـــت إليهـــا متســـائلًا عـــن مـــكان المفتـــاح، تخـــبره وهـــي تشـــهق أناتهـــا أنـــه في الحقيبـــة فـــوق المكتـــب، يســـتخرجه مـــن الحقيبـــة في جنـــون.. يدســـه في الثقـــب المخصـــص لـــه، يديـــره في عجـــل ويخـــرج عـــدة أوراقٍ يتفحصهـــا في سرعـــة حتـــى يجـــد ضالتـــه التـــي يبتغيهـــا.. ورقتـــيّ زواجهـــا العـــرفي، حمـــدًا لله أن الورقتـــين معهـــا، يلـــوح بهـــما أمـــام ناظريهـــا قبـــل أن يـــشرع في تمزيقهـــما وســـط أصـــوات نحيبهـــا، يـــسرع بمغـــادرة الحجـــرة ويوصدهـــا عليهـــا

بإحكام من الخارج صارخًا في كل من هناك، محذرًا إياهم بألا يقترب من محيط تواجدها أي منهم تحت أي ظرفٍ كان.

ينتفض من وقع تلك الذكرى عليه، ثم يمم قارب ذكرياته شطر إحدى قمتي انتصاره الساحق على تلك النازلة التي حطت بشؤمها عليهم. أولاهما هو قراره بسرعة إجهاض ابنته، يتذكر ارتعاداتها.. هذيانها.. صراخها عليه بألا يفعل بها ذلك، رجاءات «دينا» و«سلمى» بأن يعدل عن قراره هذا، توسلات «عالية» بأن يجبر الصدع ويعقد قرانهما رسميًّا، محاولاتها إثناءه عما اعتزم القيام به واجتهادها في إقناعه بأن زواجهما هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الوضع وتدارك الموقف، قبلاتها ليديه ليرحم «فريدة» من نتائج تلك العملية غير مأمونة العواقب، خوفها عليها من أن يلحق بها مكروه أثناء إجراء الإجهاض قد يودي بحياتها في النهاية، إصراره على إنفاذ الأمر.. موقف «باسل» المؤازر له، تشجيعه له على أن يمضي قدمًا فيما انتواه، إن كان ثمة ضوءٍ قد سطع هنالك في نهاية ذلك النفق الذي ارتادوه مكرهين فهو تحول موقف «باسل» من النقيض إلى النقيض، إدراكه أن هؤلاء الرعاع لا يريدون بهم خيرًا قط، وأنهم يتحينون الفرصة تلو الأخرى

لاستغلالهم وامتصاص دمائهم لتحقيق أغراضهم الدنيئة، ها هو ولده الذي اعتاد ارتياد مدن المثالية مطالبًا بالمساواة بين كل البشر يعود ليطأ أرض الواقع بقدميه الثابتتين.. «باسل» الذي طالما عشق الوقوف بعيدًا على الضفة الأخرى من نهر الحياة يستفيق ويمخر عباب الموج ليعبر إليه ويقف إلى جانبه أخيرًا لينفذا سويًّا ما استقر عليه رأي «وجيه».. إن ابنه يؤازره، فليفعل ذلك إذًا ولتزأر العاصفة.

وأخيرًا تم إجهاض «فريدة». آهٍ لو لم يكن متفتح العقل، رحيمًا، طيب القلب، لكان خليقًا به تهشيم رأس ابنته والتخلص منها لوأد هذا العار، ولكنه -لما كان عطوفًا لين العريكة- كان يكفيه دفن نبتة العار عوضًا عن دفن ابنته، وها قد فعلها وقضي الأمر.

ابتسم عندما ارتقى بقدميه أرض تلك القمة، وابتسم أكثر عندما انتقل بذكرياته لقمة انتصاره الأخرى، تلك القمة الكبرى، والتي لا يضاهيها أي انتصارٍ آخر ارتفاعًا وعلوًّا..

كان لا بد له من القضاء على تلك الحشرة التي جَرُؤَتْ على الزحف تحت عتبات قصره واستوطنت قلب ابنته، «أكرم»... ذلك الرعديد الوقح الذي استباح جسد «فريدة» بتلك الورقة الآثمة وزرع بأحشائها جرثومته لتنمو فيتمكن من تحقيق غاياته الدنيئة، لقد تمكن من القضاء على تلك الجرثومة أولًا، ولن يعجزه شيء عن التخلص من الآفة الكبرى، لن يلوث إحدى يديه بأي مبيدات قاتلة من تلك التي اعتاد استخدامها مع أعدائه ليقضي عليه -إن شئنا الدقة- فهو سيسحقه حقًّا، ولكن باستخدام ذراعه اليمنى المتمثلة في محاميه الأريب «فؤاد الألفي» الذي أوكل إليه مهمة التخلص من ذلك الانتهازي كاملة.

لم يستعص الأمر على المحامي الداهية الذي قام بوضع خطة متكاملة الأركان للقضاء عليه على كافة المستويات، في البداية تمكن من الوصول إلى بعض الطلبة الذين أشاعوا فيما بينهم أنه قام بتسريب امتحانات نهاية العام لهم، ذاع الخبر بين أعضاء هيئة التدريس وانتشر في أنحاء الكلية انتشار النار في الهشيم، تم إجراء تحقيقٍ سريعٍ في الأمر، انتهى بإثبات التهمة الموجهة له بأدلة دامغة أعدها «فؤاد» بمهارةٍ

وإتقان، ثم تم إيقافه عن العمل مؤقتًا لحين الانتهاء من البت في أمره، على الجانب الآخر تمكن «فؤاد» من التوصل لاتفاق مع دكتور «رأفت» ليستغنيَ عن خدمات «أكرم» نظير ضم مكتبه لمجموعة المحامين الموكلين بمتابعة شؤون شركات «الأسيوطي»، ليجد «أكرم» نفسه في مهب الريح، تم طرده من مكتب المحاماة الذي كان يعمل به، وإن هي إلا إجراءات بسيطة ويتم فصله من الجامعة، ها هو قد أصبح مهددًا بالضياع بعد أن كان يمني نفسه بغدٍ أفضل، ثم بضع تهديدات تصله من هنا وهناك تخبره بضرورة الابتعاد عن القاهرة لبعض الوقت، يقرر السفر إلى الفيوم؛ حيث يقيم أخواله إلى أن تهدأ الأجواء.

يتوالى تتابع أمواج الذكريات على قارب «وجيه».. ها هو «أكرم» يخرج من المشهد بشكلٍ مأساويٍّ.. أحدهم يعبث بمكابح سيارته: حادثةٌ مروعةٌ تقع على الطريق الصحراوي يودي بحياته.. تقيد الحادثة ضد مجهول.. انهيار «فريدة» عقب علمها بموته.. دخولها أحد المصحات النفسية، ومكوثها هناك لستة أشهر كاملة.. خروجها من المصحة.. رفضها التام العودة إلى المنزل.. إصرارها على الإقامة هناك

في الإسكندرية لدى عمتها «رشيدة».. عزوفها عن مقابلة الجميع.. ذبولها وانطفاؤها.. عدم رغبتها في رؤيته رغم ذهابه إليها مرارًا.. لا بأس بالأمر على أي حال، لقد فعل الصواب، هو يعلم ذلك، ستشفى «فريدة» مع الوقت، ستبرأ جراحات قلبها بمرور الأيام، وستدرك أن ما فعله كان بدافع حبه لها.

رن هاتفه من جديدٍ ليخرجه من استرساله في ذكريات تلك الفترة السابقة، إنه «باسل» هذه المرة، أسرع بالتقاط الهاتف وأجاب مسرعًا:

- «باسل».. إني أنتظر اتصالك من وقتٍ طويل. هيا أخبرني بما أود سماعه يا ولدي.

فعاجله «باسل» قائلًا في فرحٍ عارمٍ:

- لقد فعلناها يا أبي! لقد انتزعنا تلك الصفقة من فم «حامد عصفور».. لم يبق هناك على الساحة غيرنا يا أبي.

اتسعت ابتسامة «وجيه» لتشمل وجهه بالكامل وهو يقول:

- أرأيتَ يا ولدي؟ ألم أقل لك كثيرًا بأنه لا أحد يستطيع الصمود أمام «وجيه الأسيوطي».. لا أحد على الإطلاق.

الفصل التاسع

قبيل قدوم الربيع بأيامٍ قلائلٍ وعلى أحد شواطئ «سان ستيفانو» بالإسكندرية، تحت سماءٍ ترصع ثوبها بالنجوم، وقمرٌ فضيٌّ يزين خاصرتها.. يطل بوجهه في حياءٍ حينًا، ثم يتوارى خلف الغمام في أحيانٍ أخرى، كانت «فريدة» تجلس فوق أحد المقاعد كما اعتادت أن تفعل يوميًّا بعد أن غادرت تلك المصحة، وأتت إلى هنا لتقيم مع عمتها، منذ ما يزيد على الثلاثة أشهرٍ بقليل.. تقضي أغلب نهارها وحيدة بالحجرة التي أعدتها لها العمة «رشيدة».. تدعي النوم، أو ربما ترتجيه، كانت تلتمس قدومه كثيرًا باستخدام المهدئات وبعض العقاقير، والتي كانت تؤتي أكلها في البداية فتسقطها صريعة أقدامه إذا ما أتاها ملبيًّا، ولكن الأمر بدأ في التأزم

تدريجيًّا، فأصبحت عربة النوم تتباعد وتتباطأ في المجيء يومًا بعد يومٍ، حتى توقف حادي النوم عن زيارتها منذ ليلتين كاملتين، لم تفلح توسلاتها ومكوثها في الحجرة في إثنائه عن قراره، يبدو أنه مصرٌّ على مقاطعتها تمامًا، ولكن لِمَ تراه يفعل ذلك معها؟ إنها لم تُقْدم على ما يغضبه، على العكس من ذلك.. فهي كانت تنتظر زيارته في شوق، تفتح عينيها صباحًا لتحسب الدقائق واللحظات حتى تلتقيه من جديد، كانت ترتاح لصحبته، تأنس له، فهو السبيل الوحيد لإقصائها عن زخم هذا العالم من حولها، كان طريقها للابتعاد عن الجميع.. حتى عن عمتها، فعلى الرغم من إحساسها بمدى حب عمتها لها، واستشعارها بعمق لهفها وخوفها عليها، ولكن الأمر ليس بيدها على الإطلاق، فما بات في روحها متسع لاستيعاب أي منهم بداخلها من جديد، لا طاقة لها على مجاراة أي شخصٍ أيًّا من كان، لم تعد لديها رغبة في الحياة من الأساس.

ربما تكون عمتها هي آخر خيطٍ يربطها بهذه الحياة، فهي قد أسقطت من كانت تحيا بينهم من دفتر حساباتها منذ أن تخلوا عنها وتركوها تواجه عاصفة «الأسيوطي»

وحدها، لم ينصفها أي منهم، حتى «باسل» شقيقها الحبيب، لم يعد حبيبًا بعدما اكتمل تكوينه «الأسيوطي» وارتقى ليصبح نسخة أخرى من أبيه، نعم.. هو أبوه ووالده هو وليس والدها على الإطلاق، إن الوالد لا يقتل أبناءه، و«الأسيوطي» قد أقدم على قتل صغيرها وهو ما زال نطفة في أحشائها بعد.. هي حقًّا قد أخطأت، إنها تعلم ذلك جيدًا، تدرك أن تلك الوهدة التي تعثرت بها هي و«أكرم» معًا قد أجبرتهما على اللجوء إلى الزواج العرفي ليتمكنا من انتشال نفسيهما من داخلها، جرفهما الشوق معًا فزلت أقدامهما، لم يكن أمامهما من سبيلٍ آخر يلتجآ إليه، ظنا أنهما بزواجهما هذا سيتمكنان من إصلاح ما أفسده دفق الشوق، خاصة عندما أحست بدبيب صغيرها داخلها، لم ينتويا الإفصاح عن حقيقة الوضع كاملة، اعتقدا أن بإمكانهما إقناع والدها بطريقةٍ ما، كانا يعرفان أن الأمر معقدٌ وجسيم، ولكنها كانت تعتزم اللجوء إلى شقيقها للضغط على والدها ليوافق، لم تتصور تطور الأمور لتلك الدرجة، كانت تعلم أن إقناع والدها بزواجها من أكرم أمر شديد الصعوبة، ولكنها منت نفسها بأنه سيوافق في النهاية، لم يكن أمامها إلا أن تتمسك بخيوط تلك الأمنية الواهية،

وهل كان باستطاعتها غير ذلك! ولكن أن يثور والدها هكذا بمجرد أن طلبها «أكرم» للزواج، وأن يمعن في إذلاله ونعته بكل تلك الألفاظ والصفات البذيئة... فهذا ما لم تكن تضعه في الحسبان أبدًا، كانت تنتظر رد فعلٍ مختلفٍ منه، كان حريًّا به أن يرفض، أن يعلن عدم رضاه على زواجهما، أن يقاطعها، أن يصرح بتبرئه منها، ويهدد بحرمانها من الميراث.

كانت تتوقع أن يمنحها بعض الوقت لتستطيع استمالة أحدهم في صفها فيتمكن من إقناعه في النهاية، ولكنه فاجأها بردة فعله تلك، فلم تشعر بنفسها إلا وهي تخبره بحقيقة الوضع عله يرضخ.. يلين.. يرق لها، ولكنه فاتها أن «وجيه الأسيوطي» قد خلق بلا قلب، ويبدو أن ابنه قد أصابته عدوى فراغ القلوب، فغدا مثله تمامًا منزوع الشعور، لم يعودا بنظرها يمثلان الوالد والأخ منذ أن تلوثت أيديهما بدماء طفلها وحبيبها، فأي والد ذاك الذي يلقي بحبه لابنته أرضًا ويطأ مشاعر أبوته بقدميه بكل صلفٍ وقسوة! وأي أخوة تلك التي تصم أذنيها عن توسلاتها بالرحمة!

لقد ذبحها «وجيه الأسيوطي» وابنه الأكبر بدمٍ باردٍ، ولم يعبأ بتوسلات قلبها، لم يلقيا بالًا لنزف روحها.. قتلاها

بنصلٍ تلمٍ عندما أجهضا صغيرها، وقتلاها من جديدٍ عندما اغتالا «أكرم».

آهٍ يا «أكرم»! ليتك ما عرفتني من الأساس، ليتنا لم نلتق ونجتمع معًا لتساعدني في الاستذكار، كما سبق وتمنيت علينا من قبل، لم أدرك صدق حدسك ولمتك يومها على قولك هذا، لو أننا لم نقترب من بعضنا هكذا لكنت الآن حيًّا تملأ الأسماع والأبصار، لكن حبك لي أوردك موارد التهلكة.

آهةٍ طويلة خرجت من جوفها فأحدث صداها رنينًا تردد هناك بحشاها مراتٍ ومرات، أنين قلبها يعلو صارخًا:

- (لا أحد منهم نَصَفَكِ يا «فريدة»، كلهم قد خذلوكِ، حتى خالتك الحبيبة قد أصابها اليأس وخضعت لجبروت «الأسيوطي» كديدنها دائمًا، ما فائدة رجاءاتها وتوسلاتها التي أقدمت عليها من البداية إن كانت قد حادت عن موقفها ولم تثبت عليه! ألا يقولون إن العبرة بخواتيم الأمور! فما الذي يشفع لها لديكِ إذا كانت خاتمتها هي الانصياع لقرارات الأسيوطي الغاشمة)!

استطال النزف بداخلها حتى ران على جدران روحها المتصدعة، تمدد حتى خصب حائط الليل بتأوهاته القانية اللون.. ما لهذا الوجع لا يريد أن يرحل عنها! أكلما بترت له يدًا نبتت غيرها من جديد! وأي حياة تلك المعجونة بنخالة الوجع! وما جدواها من الأساس!

تضافرت أحزانها معًا واجتمعت عليها حتى أحست بالاختناق، فزفرت في تتابع، أخذت تحصي شهقاتها علها تهدأ وتستكين.. أزمعت أن تمشي قليلًا فلربما ساعدها السير على أن تهدئ من روعة انفعالاتها. قامت من مكانها وأحكمت وضع وشاحها على كتفيها، ثم سارت بمحاذاة الشاطئ، تداعبها النسمات فتعبث بخصيلات شعرها في مرح فلا تشعر بوقع لمساتها، تهدهد وجنتيها في مشاكسة فلا تلتفت لأصواتها، تمعن التفكير بأحزانها، تأتيها صور متتالية من تلك الليلة التي استلبوها فيها صغيرها وأخرجوه من داخلها عنوة.

تتذكر أصابع «دينا» وهي تضغط على يدها في لهف بينما صوتها يطمئنها قائلًا: «لا تخافي يا «فريدة».. ستكونين بخير»! عيناها تبرز من خلف الضباب تنظر لها في حب، يتردد صوتها من جديد: «أنا معكِ هنا.. فلا تقلقي»! يا الله! ألن

يهدأ فوران هذه الأصوات في يومٍ ما! ترفع يدها لتصم أذنيها عن تلك الذكريات؛ فينسل الوشاح من فوق كتفيها ويتطاير بعيدًا، تنتبه له.. تسرع الخطى خلفه، ها هي تقترب منه لتمسك به، فتحمله الرياح بعيدًا لمرة أخرى، بسمة خجلى ارتسمت على محياها رغمًا عنها، أيعقل أن الرياح تداعبها في مشاغبة! أتشعر بضيقها وتريد التسرية عنها! عجبًا لها! ألا يزال هناك شيء ما في هذا الوجود يسعى لإبهاجها!

داخَلها شعور بالامتنان نحو تلك الرياح الحنونة، حسنًا... لتشاركها اللهو إذًا ما دامت ترغب في ذلك، أخذت تجد الخطو خلف وشاحها بينما تداعبها الرياح كلما اقتربت من الإمساك به، فتحمله لتلقيه بعيدًا عنها.. تعالت ضحكاتها في تتابعٍ لأول مرة منذ تسعة أشهرٍ كاملةٍ.

واصلت العدو خلف الوشاح الطائر فلم تشعر بنفسها إلا وهي تصطدم بأحدهم، رفعت رأسها لتعتذر، فصافحت عيناها وجهًا بشوشًا لرجلٍ في أواخر عقده الخامس، وسيم الملامح، مبتسم الثغر، مألوف الوجه إلى درجةٍ كبيرة، نظرت له لبرهة تحاول تذكر أين رأته من قبل! العجيب في الأمر

أنـه بادلهـا ذات النظـرات، ثـم أسرع قائـلًا في تبسـمٍ قبـل أن تتمكـن مـن الاعتـذار لـه:

- معذرة يا آنسة، ولكن هل التقينا قبل ذلك؟

خفضت عينيها سريعًا وهي تقول في خفوت:

- لا أدري حقًّا، ولكنك وجهك يبدو مألوفًا لي.

ثم نظرت إليه وهي تكمل:

- أعتـذر إن كنـت قـد اصطدمـت بـك دون أن أشـعر، فأنـا أطـارد وشـاحي المشـاغب هـذا منـذ مـا يربـو عـلى العـشر دقائـق دون جـدوى.

قالـت ذلـك وأشـارت حيـث كان وشـاحها يقبـع منـذ قليـل، التفـت كلاهمـا ينظـران نحـوه، فلـم يجـداه..

نظرت إليه قائلة:

- يبدو أن الريح قد حملته بعيدًا مرة أخرى.

لا يـدري مـاذا حـدث لـه عندمـا التقـت عيناهمـا في هـذه اللحظـة، شـعر بـأن قلبـه ينتفـض داخلـه مـن وقـع نظراتهـا فـوق أديـم روحـه، أربكتهـا نظراتـه قليـلًا فأسرعـت بـإدارة وجههـا بعيـدًا عنـه، أحـس بارتباكهـا فـأسرع يقـول في مـرح:

- أعتقد أن الريح يحلو لها قليلًا أن تداعبك.

التفتت إليه في دهش وهي تقول:

- عجبًا! أتعلم أن قولك هذا كانت تدور أصداؤه بداخلي منذ قليل؟

أجابها قائلًا في ود:

- أتعلمين أنهم يسمون ذلك في علم النفس بتوارد الخواطر؟

هزت رأسها في خجل وكأنها تؤَمِّن على قوله، ابتسم لها وهو يسألها في مرح:

- ما رأيكِ لو ذهبنا لنبحث عنه سويًّا بما أن خواطرنا تتوارد من قبل أن نلتقي؟

أصابتها عدوى ابتسامته فهشت في وجهه وأومأت له برأسها موافقة وهي تقول:

- لا بأس إن كنت تصر على هذا.

اتسعت ابتسامته لتحتوي قسماته كلها وهو يردف:

- حسنًا إذًا.. هيا بنا نبحث عنه لنشارك الريح مداعباتها، ولنعلن لها أننا سنتمكن من الفوز بغنيمتنا في نهاية الأمر.

تقدمها سائرًا في اتجاه الأمام... فلحقته.

***

- أي نسائم طيبة هذه التي قد حملتكما على القدوم لرؤيتي اليوم! يبدو أنه يوم سعدي كما يقولون.

قالتها «رشيدة» ثم أسرعت باحتضان «عالية» في اشتياق وهي تكمل:

- لم أرك منذ ثمانية أيام كاملة يا ابنة العم، ألم تشتاقي إلى جلساتنا سويًّا؟

زادت «عالية» من وتيرة احتضانها لها وهي تقول:

- كيف تقولين ذلك يا حبيبتي! ها أنا ذا أمامك الآن ولن أتركِكِ حتى تملين مني وتستحلفينني بالرحيل.

قهقهت «رشيدة» قائلة:

- أما هذا فهو ما لن يحدث أبدًا.

ثم التفتت إلى «دينا» وجذبتها في رفقٍ لتغوص تلك الأخيرة بين أحضانها، طال احتضانها لابنة أخيها لبعض الوقت، وهي تغلق عينيها في رضا، ثم أفلتتها أخيرًا من بين

ذراعيها لتمسك بيدها وهي تتجه نحو الداخل بينما ترد «دينا» في حب:

- لقد اشتقت إليكِ كثيرًا يا عمتي.

هش لها وجه عمتها وهي تقول:

- لقد أنرتِ سماء الإسكندرية كلها يا ابنة أخي.

أسرعت «دينا» تقبلها على وجنتيها قائلة:

- إنما سماء الإسكندرية مزدانة بكِ يا عمة.

زاد إشراق وجه عمتها وهي تسألهما في مرح:

- هل تناولتما طعام الإفطار أم لم تفعلا بعد؟

أجابتها «عالية» بينما تتوغل خلفهما داخل ردهة الفيلا:

- الساعة الآن تقترب من الثانية عشرة ظهرًا يا «رشيدة».. نحن نتناول إفطارنا في تمام السابعة صباحًا كما اعتدنا.

بترت عبارتها وصمتت للحظاتٍ ثم قالت في خفوت:

- أنتِ تعلمين جيدًا تلك القواعد الأسيوطية الصارمة.

أسرعت «رشيدة» تقول في مرح وكأنها تحاول إبعاد سحابة الحزن التي أظلت سماء المكان على حين غرة:

- مـا لنـا نحـن وتلـك القواعـد الأسـيوطية الرعنـاء! إننـا هنـا في الإسـكندرية وتحـت مظلـة هـذا البيـت لا نلقـي لهـا بـالًا عـلى الإطـلاق، ولا نطبـق غـير القواعـد التـي تحلـو لنـا فقـط، كـما أننـي كـما تعلمـون جميعًـا أهـوى تكسـير القواعـد منـذ شـببت عـن الطـوق.

ثم نظرت إلى «عالية» وقالت مازحة:

- أم أنكِ قد نسيتِ ذلك يا ابنة العم!

علت وجه «عالية» ابتسامة صافية وهي تجيبها قائلة:

- وكيف لي أن أنسى يا رفيقة العمر.

بادلتهـا «رشـيدة» الابتسـام وهـي تقـول في نـبرة خاصـة وكأنهـا مقدمـة عـلى أمـرٍ جلـل:

- مـا رأيكـما أن تشـاركاني الآن في تحطيـم هـذه القواعـد السـخيفة؟ أعلـم أنكـم هنـاك معتـادون عـلى تنـاول بعـض المقبـلات في مثـل هـذه الموعـد، لنكـسر تلـك العـادة المقيتـة اليـوم ولنتنـاول إفطـارًا شـهيًّا معًـا، لا تظنـا أني أستشـيركما في الأمـر لا سـمح الله، فأنتـما سـتنفذان مـا أقولـه دونـما جـدال، أليـس كذلـك؟

هزت كلًّا منهما رأسها لها في سرور، فأسرعت تقول:

- لتجلسا حيث شئتما بينما أخبر الخدم ليقوموا بإعداد مائدة إفطارٍ عامرة تليق بكما..

أجابتها «عالية» قائلة:

- لتذهبي إذًا بينما سننتظركِ نحن في الحديقة الخليفة، فإن «دينا» لم تر حتى الآن تلك البرجولة الجديدة التي أعددتها مؤخرًا، أنتِ تعلمين شدة ولعها بالأزهار والحدائق.

قالت ذلك ثم أمسكت بيد «دينا» واتجهتا سويًّا صوب حديقة الفيلا الخلفية، وما إن وطئت أقدامهما أرض الحديقة حتى أسرعت «دينا» لتلتفت إلى خالتها متسائلة:

- أيناها «فريدة» يا خَالَتِي؟ أيعقل أنها لا تزال نائمة حتى الآن؟

- هيا لنجلس أولًا ولننتظر قدوم عمتكِ لتخبرنا.

أسرعتا بالجلوس أسفل البرجولة بينما «دينا» تقول:

- لم أشأ أن أسألها عنها عند قدومنا حتى لا تظن أن مجيئي معكِ اليوم لأطمئن على شقيقتي فقط، أنتِ تعلمين أن عمتي شديدة الحساسية تجاه قلة زياراتنا لها.

- أنا أدرك أن عمتكِ تعلم سبب قدومكِ الحقيقي، فأنتِ غير معتادة على المجيء لزيارتها إلا على مدار فترات متباعدة، ثم بدأت تنتظمين في الحضور إليها منذ قرابة الخمسة أشهر منذ أتت شقيقتكِ لتستقر لديها ها هنا، على أي حال لا تحملي هم هذا الأمر، فعمتكِ تدرك انشغالكِ في دراستكِ، ثم إنه لا ضير على الإطلاق من قدومك للاطمئنان على شقيقتكِ.
- الاطمئنان عليها! أي اطمئنان هذا إن كنت لم أستطع رؤيتها كلما أتيت إلى هنا! إنها دائمًا معتكفة في حجرتها هنالك في الطابق الثاني، ترفض الخروج لملاقاتي رغم علمها بقدومي خصيصًا من أجلها، حتى إنني في آخر زيارة لي منذ ثلاثة أسابيع لم أجدها في البيت، فانتظرتها لقرابة الأربع ساعات، فما كان منها عند عودتها من الخارج إلا أن أسرعت بالهرولة إلى الأعلى عندما رأتني بينما تعتلي سطح وجهها إمارات الضيق والاشمئزاز، وكأنها رأت شيطانًا وجب عليها الفرار من حقارة نزغاته قبل أن تصيبها سهام شرره، أتصدقين ذلك!

ربتت «عالية» على يدها في رفقٍ وهي تقول في حنو:

- لنلتمس لها العذر يا حبيبتي، فما قاسته لم يكن هينًا على الإطلاق.

- ولكن ما ذنب أي منا فيما حدث معها؟ أنتِ تعلمين أنه رغم رفضي لطريقة زواجها تلك بوضعها لنا أمام الأمر الواقع، ورغم نفوري من هذا الشخص الذي أسرعت بالارتماء بين أحضانه من خلف ظهورنا جميعًا، رغم اعتراضي على ما أقدمت عليه، ورغم يقيني بعدم صحة زواجها هذا من الأساس، إلا أنني كنت أدعم موقفكِ تمامًا، وكنت أؤيد فكرة الإسراع بتزويجهما رسميًّا كي نحل تلك الأزمة بأقل قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، ولكن أبي ألقى بكل آرائنا هذه عرض الحائط وأصر على إنفاذ ما رآه هو صحيحًا.

تنهدت «عالية» في حرقةٍ وهي تقول:

- أعلم ذلك يا حبيبتي، وأتفق معكِ تمامًا في رأيكِ فيما فعلته فريدة، أوقن أن فعلتها تلك ما هي إلا جُرمًا ارتكبته في حق نفسها وحقنا جميعًا، أدرك أن العقل كان

يرجح ما اقترحناه وقتها على أبيكِ بأن نسلك الطريق الأكثر أمانًا لها.

صمتت قليلًا ثم أردفت:

- على أي حالٍ ليس هناك من فائدةٍ ترجى من وراء كل ما نقوله الآن.. لقد قضيَ الأمر منذ أحد عشر شهرًا وما كان قد كان، كل ما يهمني حاليًّا هو أن أطمئن عليها، وأن أتمكن من استعادتها من جديد، إنها لا تمكِّنُني من رؤيتها أنا الأخرى، لا تستجيب لتوسلاتي العديدة كلما أتيت إليها هنا، على الرغم من محاولات عمتكِ المستميتة إقناعها بالسماح لي برؤيتها، ولكن ما يطمئنني قليلًا هو أنها بدأت في التحسن منذ ستة أسابيع كما تخبرني عمتك كلما أتيت إليها أو حادثتها عبر الهاتف.

قطع استرسالهما في الحديث قدوم «رشيدة» وهي تبتسم متسائلة:

- هل تأخرت عليكما؟

وقفت «دينا» احترامًا لها وأفسحت لها مكانًا قائلة:

- مـا جئنـا لنتعبـكِ يـا عمتـي ولكننـا فقـط نريـد أن نأنـس بقربـكِ قليـلًا.

اتخـذت «رشـيدة» مجلسـها بينهـما وهـي تجـذب ابنـة أخيهـا لتجلـس بينـما تعلـو وجههـا ابتسـامة متفهمـة وهـي تنظـر صوبهـا وتقـول:

- لم تسـأليني عـن أحـوال «فريـدة» حتـى الآن عـلى الرغـم مـن رؤيتـي لذلـك التسـاؤل في عينيـكِ!

نظـرت لهـا «دينـا» في لهـف فأسرعـت تربـت عـلى وجنتهـا وتقـول:

- حسـنًا يـا حبيبتـي! أدرك أنـكِ تتحرقـين لمعرفـة مـا اسـتجد عليهـا، لتسـألي مـا يحلـو لـكِ، ولكـن أخـبري قلبـكِ أولًا أن يطمئـن ولا يجـزع فهـي بخـير حـالٍ هـذه الأيـام.

تنفسـت «دينـا» الصعـداء وعـلا وجههـا الارتيـاح بينـما عمتهـا تكمـل في رفـق:

- هـا هـو الطعـام قـد جـاء، لنتناولـه أولًا، ثـم أجيبـكِ عـلى كل مـا ترغبـين في اسـتيضاحه.

الفصل العاشر

دلف «وجيه» إلى داخل حجرة نومه الخاصة التي انتقل إلى الإقامة بها منذ أن ساءت علاقته بزوجته عقب دخول «فريدة» المصحة النفسية، واتجه صوب الأريكة المواجهة للفراش وأسرع بالارتماء عليها في إجهاد، شرد لبعض اللحظات متذكرًا كيف كانت تلقاه «عالية» فور عودته من الخارج فتسرع إلى احتضانه وتقبيله وكأنه كان غائبًا عنها لشهورٍ طويلةٍ وليس لعدة ساعات، لطالما أشعرته بأنه ابنها وليس زوجها.

لا يدري لِمَ يفتقدها قلبه كثيرًا في الآونة الأخيرة؟ ولِمَ يستمر ذلك الدبيب يفح في روحه ليخبره بأنه في أمس الحاجة إليها؟ ربما لأنه يشعر أن كل أحلامه التي دانت له قد باتت بلا

جـدوى، لقـد ارتـدى ثـوب أحلامـه هـذا زمنًـا طويـلًا حتـى اتسـخ وغـدا مهترئًـا بفعـل كل تلـك المؤامـرات التـي مـا فتـئ يحيكهـا في لهـف، كل خطـة كان قـد وضعهـا للوصـول إلى قمـة غاياتـه كانـت تحـدث ثقبًـا في ثـوب يقينـه بصحـة موقفـه، ثقبًـا صغـيرًا لم يؤرقـه وجـوده في بـادئ الأمـر كونـه لا يلحظـه الآخـرون، ولكنـه عـلى الرغـم مـن ذلـك كان يجـد نفسـه تـسرع إليهـا لتخلـع عليـه عبـاءة حنانهـا وتعيـد حياكـة روحـه مـن جديـد، فيخـرج لوجـود الآخريـن براقًـا خالصًـا نقيًّـا... كانـت تجيـد ترتيـب الفـوضى التـي تعبـث بنفسـه وتطفـئ دواخلـه؛ فتـشرع في بعثـرة النجـوم فـوق حوائـط أيامـه، فـلا تعـرف سـماوات عمـره إظلامًـا، كان وجودهـا كفيـلًا لاعتـدال كفـة ميزانـه الأخلاقـي. دائـمًا مـا كان يحـاول إقنـاع نفسـه بأنـه لا يخبرهـا بحقيقـة مـا يفعلـه بخصومـه بدعـوى أنهـا لا تفقـه شـيئًا عـما يجـري فـوق أرض الواقـع مـن أحـداث قـد نضطـر إلى إتيانهـا لنعلـو، ولكنـه رغـم إنـكاره لذلـك كان يحجـب عنهـا الأمـر كـي لا يسـقط مـن عليائـه أمـام ناظريهـا فتـدق عنـق هيمنتـه عـلى قلبهـا فتـسرع إلى هجـره -هـو يعلـم ذلـك الآن ولا يسـتطيع التنصـل مـن حقيقتـه- عـلى الرغـم مـن أنـه كان مؤمنًـا بنفسـه إلى أبعـد الحـدود... واثقًـا مـن رجاحـة قرارتـه، منتميًـا إلى

جمهوريته الخاصة التي وضع دستورها وسطر قوانينها بيديه، كافرًا بأي حدودٍ أخرى تتخطى حاجز الأسوار الشائك الذي شيده بينه وبين الآخرين وقام بترسيم خطوطه بكفتي روحه، ولكنه -لسببٍ ما- كان كلما حقق انتصارًا جديدًا أو أطاح بخصمٍ عتيدٍ كان يهاجر إلى أراضيها ليتطهر، يمتطي صهوة هضابها لتهدأ جوارحه، يعيد استكشاف جغرافية عالمها في وجل، فيسلك دروبها ويقتحم وديانها وضواحيها بشغفٍ وكأنما يطأ حدودها للمرة الأولى، فتسكب نسائم تنهداتها فوق بساط ذكورته، فيسكن ذلك المارد القابع بأعماقه ويستكين، كان لا يجد راحته عقب كل معركةٍ يخوضها إلا عندما يلجها. ولكنه طوال كل تلك الأشهر الماضية كان لا يريد الاعتراف بحاجته إلى أن يهاجر إليها من جديد، فأخذ يلجأ إلى ليّ عنق الحقيقة ظنًّا منه أنه يعاقبها بالابتعاد لأنها أهملت في الاعتناء بابنته، ولكنه ويا للعجب! وجد نفسه شيئًا فشيئًا يحتاج إلى أن ترسو سفنه بين مرفأي عينيها، وكأن روحه قد خرجت من رحم تينيك العينين.

مشـــاهد حياتـــه معهـــا تتـــوالى أمـــام عينيـــه كأنهـــا شريـــط سـنيمائي، يسـترجعها عـبر حبـلٍ سُري مـن ذكريـات سـنواتهما معًـا، حبهـا... حنانهـا... دفء أحضانهـا... نـزف عشـقها السـيال... كيـف سـول لـه غـروره أنـه يمكنـه الابتعـاد عنهـا! كيـف حدثتـه نفسـه بـأن بإمكانـه اسـتبدال بعـض الأخريـات بهـا! كيـف اعتقـد أنـه كلـما طـنَّ شـوقه صادحًـا باسـمها يمكنـه الإسراع إلى غيرهـا ليقـضي وطـره مـن إحداهـن! كيـف دنـس مـا كان بينهـما إلى تلكـما الدرجـة فـشرع في الاغـتراف مـن قـراح مائهـن الآسـن الـذي مـا روى ظمـأه أبـدًا! ألهـذه الدرجـة سـكنه الغـرور واسـتقر بداخلـه! إنـه حقًّـا كان يلتجـئ إلى أي أسـاليب للفـوز في مضـمار العمـل، كل الوسـائل كانـت مشروعـة في نظـره ليصـل إلى مـا يريـد، كان يعتبرهـا حربًـا عليـه الانتصـار فيهـا، أوَ ليسـت في الحـروب كل السـبل مباحـة! ولكنـه أبـدًا لم يكـن ليجـرؤ عـلى الدخـول في علاقـاتٍ محرمـة مـع غيرهـا مـن النسـاء، ولـو عـلى سـبيل التسـلية أو اللهـو كـما يفعـل الكثـير مـن الرجـال في زماننـا هـذا، كان يحتفـظ بنفسـه لهـا فقـط، يعتـبر مـا يحـدث بـين الرجـل وامرأتـه مقدسًـا لا يجـوز انتهاكـه، فـإلى أي مـدى آخـر سـوف يصـل في سـقطته تلـك! لقـد بلـغ أسـفل الجـب وتحطمـت فـوق صخـوره لياليـه المدهوكـة.

نهض من رقدته وأسرع بنزع سترته وألقاها على حافة الفراش، ثم اتجه صوب المرآة وهو ينظر إلى انعكاس صورته فيها محَدثًا إياها في لوم وهو يقول (ماذا تريد الآن يا «وجيه»؟ أما كفاك كل ما حدث؟ لقد هجرتك «عالية» وكنتَ تظن أنك أنت من أسرعت إلى هجرها، رفضت «فريدة» العودة إلى حمايتك والتجأت إلى عمتها وكأنها تخبرك بأنك لن تستطيع إحكام قبضتك عليها كما أردت، لهشاشة صلتك بشقيقتك الوحيدة، بهتت علاقتك بابنتيك الأُخْرَتين منذ ما حدث، حتى «باسل» الذي اعتقدت بأنه غنيمتك الوحيدة من وراء ذلك الحادث، وبأنه فرسك الرابح في سباق الأيام... قد استغرقته تقلبات السوق واجتذبته بعيدًا عنك ليحلق هناك في فضاءٍ جديدٍ كنت أنت من اصطنعته له، ماذا تريده أن يحدث أكثر من ذلك ليثبت لك أنك كنت على جانبٍ من الخطأ عندما استعديت عليك كل من حولك؟ و«عالية» أيضًا! لتعترف بأنك بحاجتها لترتق نسج روحك من جديد... لا ضير من هكذا اعتراف على الإطلاق، لتذهب إليها في غرفتها الآن، لن يحتاج الأمر لتقديم اعتذاراتٍ أو لطلب مسامحة، يكفي فقط أن تنظر في عينيها، لتفعل ذلك

الآن يـا «وجيـه» ولا تكابـر، لتفعلـه الآن فتلـك اللحظـة أفضـل ممـا بعـد قليـل...).

هـز رأسـه في تسـليمٍ وأسرع بالخـروج متجهًـا صـوب حجـرة «عاليـة»، تلـك الحجـرة التـي جمعتهـما سـويًّا لسـنواتٍ طـوال، دق البـاب في رفـقٍ ودون أن ينتظـر إجابـةٍ دلـف إلى الداخـل، تعجـب مـن كونهـا غـير متواجـدة في حجرتهـا عـلى غـير عادتهـا في مثـل هـذا الوقـت، أتراهـا في حجـرة إحـدى الفتاتـين؟ أسرع يتفقدهـا في حجـرة «دينـا» فلـم يجدهـا، فاتجـه إلى حيـث حجـرة «سـلمى» وفتـح البـاب مبـاشرة دون اسـتئذان، انتفضـت «سـلمى» حيـث كانـت تجلـس فـوق أريكتهـا تطالـع إحـدى المجـلات متسـائلة في تعجـب:

- خيرًا يا أبي! ماذا هناك؟

سألها في لهف:

- أين خالتكِ وشقيقتكِ يا «سلمى»؟

- لم ترجعا بعد منذ خرجتا صباحًا لزيارة عمتي.

ارتج عليه الأمر فقال:

- مـاذا تقولـين؟ إن السـاعة الآن تقـترب مـن العـاشرة والنصـف مسـاءً! لِمَ لم تخبرينـي بذلـك حتـى الآن؟

نظرت إليه في جمودٍ وهي تقول:

- وماذا في ذلك؟ إنهما معتادتان على زيارتها هناك كل أسبوع على وجه التقريب، وأنا أيضًا قمت بزيارتها لعدة مرات، ولم يلفت هذا الأمر انتباهك طيلة كل تلك الأشهر، ولم تتساءل عنه من قبل، فلِمَ عساك تفعل ذلك الآن يا ترى؟
- ها قد أصبحتِ تجرؤين على التحقيق معي يا «سلمى» بعدما كنتِ تطيعينني دون مناقشة، وتستحسنين كل فعلٍ كنت أقوم به قديمًا!

أحست بالخجل فأسرعت بخفض عينيها وهي تقول:

- عذرًا يا أبي! ولكن يبدو أن كل ما كان يحدث قديمًا قد ذهب بلا رجعة.

لم يشأ أن يجادلها في الأمر فأسرع قائلًا:

- لنؤجل مناقشة قولك هذا لما بعد، ولتعلميني الآن! ألم تخبراكِ بموعد عودتهما من الإسكندرية؟
- لقد اتصلت بهما عقب عودتي من الجامعة منذ أربع ساعاتٍ وأخبرتني خَالَتِي أنهما لم يجدا «فريدة» في المنزل عندما وصلتا إلى هناك، وأنهما سيمكثان قليلًا حتى تعود ليطمئنا عليها، لا بد أنهما في طريق عودتهما الآن فلا تقلق.

نظر إليها في غيظٍ مكتومٍ ثم هتف صائحًا:

- أتقولين بأن شقيقتكِ قد غادرت المنزل صباحًا ولم تعد إليه حتى السادسة مساءً تقريبًا! ولا تجدين في ذلك ما يستدعي القلق لتخبريني به؟ يبدو أن كل من في المنزل قد أصابهم الخبال!

أسرع نحو الردهة وهو يخرج هاتفه من جيب بنطاله في عجالةٍ وكون رقم «عالية» في سرعة، استمع إلى بضع رناتٍ متقطعة ثم أتاه صوتها في ارتباك:

- «وجيه»!

أقلقته تلك النبرة التي نطقت بها اسمه فأسرع يسألها:

- ماذا هنالك يا «عالية»؟ هل عادت «فريدة» إلى المنزل أم لم تعد بعد؟

- يبدو أن «سلمى» قد أخبرتك بالأمر، نحن لم نشأ إزعاجك في البداية فقد ظننا أن غيابها طبيعيًّا كما اعتادت أن تفعل مؤخرًا على حد قول «رشيدة» ولكن... ولكنها لم تعد حتى الآن ولا نعرف إلى أين

ذهبت، حاولنا الاتصال بها مرارًا ولكن يبدو أن هاتفها خارج نطاق التغطية.

مادت به الأرض قليلًا فسألها محاولًا السيطرة على نبرات صوته:

- منذ متى وهي في الخارج؟
- منذ الحادية عشرة صباحًا..

حاول التحكم في انفعالاته كي لا تتسع الهوة بينهما لأكثر من ذلك، ولكنه لم يفلح، غلبه خوفه على ابنته فقال في صوتٍ مرتفع:

- ومتى كنتم ستخبرونني بالأمر إذًا؟ أعندما كان سينقضي يومان آخران وأنتم لا تعرفون عنها شيئًا بعد؟

أتاه صوتها يقول في عدم احتمال:

- بالطبع لا، ولكن «رشيدة» تقول إنها اعتادت المكوث طويلًا خارج المنزل في الآونة الأخيرة، لا تقلق فمن المؤكد أننا سنجدها أمامنا الآن، إن «دنيا» تتفقد حجرتها في الأعلى علها تجد ما يرشدنا إلى مكانها.

تنهدت في إعياءٍ فبادلها التنهد قائلًا في رفق:

- لا تؤاخذيني على ثورتي هذه، فلقد استبد بي القلق عليكِ أنتِ و«دينا» عندما تأخرتما في العودة، ثم ها أنتِ تخبرينني الآن بعدم عودة «فريدة» حتى هذه اللحظة..

صمت قليلًا ليستجمع أنفاسه الفارة ثم أردف في صوتٍ متهدج:

- لقد اشتقت إليكِ كثيرًا يا «عالية»... اشتقت إليكم جميعًا، لا معنى للحياة بعيدًا عنكم...

لمح «سلمى» قادمة في اتجاهه فأسرع قائلًا:

- لنطمئن على عودة «فريدة» سالمة أولًا، ثم أعدكِ بأنني سأحاول رأب الصدع الذي نشأ بيننا... فقط عدِيني بأن تحاولي نسيان كل ما حدث طوال تلك الأشهر.

أتاه صوتها وهي تقول في ارتعاد:

- لنؤجل هذا الأمر الآن يا «وجيه».

- سنؤجله ولكننا لن ننساه، أليس كذلك يا حبيبتي؟

كادت تجيبه عندما اقتحم صراخ «دينا» استرسالهما في الحديث وهي تقول لخالتها في صراخ:

- كارثة يا خَالَتِي، كارثة.

هـا هـو صـوت زوجتـه تسـألها مـن عـلى الجانـب الآخـر مـن الهاتـف في التيـاع:

- ما الذي حدث؟ تكلمي..

انتفض عندما سمع رد «دينا» وهي تقول في جزع:

- إن صوان ملابسها فارغ عن بكرة أبيه..

تناهـي إلى سـمعه أصـوات اختـلاط صراخهـا معًـا، أغلـق عينيـه في غـير تصديـقٍ، بينـما يدغـدغ اتزانـه صـوت ارتطـام هاتـف زوجتـه بالأرضيـة، يشـعر بانسـحاب روحـه تدريجيًّـا مبتعـدة عنـه، ينظـر نحـو «سـلمى» في ذهـولٍ غـير قـادرٍ عـلى إجابـة تسـاؤلات عينيهـا وهـي تتشـبث بثيابـه تسـتحثه إخبارهـا بـما حـدث، يقـف عاجـزًا... وحيـدًا بـين ابنتـه وظنونـه، يتعلـق بلحظـة ثبـاتٍ واهيـة، يشـهق أنفاسـه في ارتعـادٍ وهـو يجيبهـا مـن خلـف غمامـات الـ «مـاذا / لـو»..

- لقد فرت «فريدة»....

***

تفريغ لأحد التسجيلات بين «عالية» و«ريم»...

عامان مرا على اختفاء «فريدة»... عامان بالتمام والاكتمال، تمام الألم، واكتمال الشتات... وكأنها برحيلها المفاجئ هذا قد اصطحبت معها مسببات الراحة وانتزعتها من أجوائنا؛ فكفت شمس عالمنا عن بث الطمأنينة إلى نفوسنا، وكأن رحيلها قد اجتث بذور الترابط من أديم أراضينا فبارت ذرات أرواحنا وتصحرت حبيباتها، ولم تنبت لنا غير صبار التمزق والانفراط...

كل منا هنا قد تغير من حالٍ إلى حال، وغدا شخصًا آخر غير ذي قبل، ما زلت أذكر حال «وجيه» عقب اختفائها، وكيف جُن جنونه وفارت براكينه، صحيحٌ أن براكين «وجيه» كانت كثيرة الانفجار، ولكن ثورته لفرار «فريدة» لم تكن كثوراته السابقات، كان ثائرًا مختلفًا عن ذي قبل، لم يكن منفلت الأعصاب إلى درجة الاجتياح كما توقعنا جميعًا، وكما اعتدنا من غزو انفعالاته لأرجائنا، وإحاطتها بنا،

وتسربها إلى مساماتنا دائمًا... إنما كانت ثورته ثورة بيضاء، لم يقتلع فيها رؤوس اتزاننا النفسي ولم تجرِ على جوانبها دماء أرواحنا كما كان سيحلو له أن يفعل... ربما لأن اتزاننا النفسي كان قد أطيح به من الأساس يوم أن رحلت «فريدة»، أو ربما قبل ذلك بشهور منذ حدث ما حدث معها، ومن المحتمل أن التصاق أرواحنا ببعضها البعض كانت قد انفرطت حباته منذ زمنٍ ولم ننتبه لذلك، ربما.. وربما.. وربما، ولكن الأمر الأكيد أن «وجيه» كان كثير الشرود وكأنه مغيبٌ، لم يكن مغيب العقل، إنما روحه كانت هي المغيبة خلف غمامات عدم الاستيعاب، كانت شاردة غير قادرة على تصديق أنه بكل سلطاته وجميع علاقاته لم يستطع التوصل إليها أو معرفة الطريق الذي سلكته.

على الرغم من أنه لم يترك دربًا قد يقوده إليها إلا وقد اقتحمه، لم يدع حجرًا ظن أنها تكون قد تعثرت به خلال فرارها إلا وقد قلبَه، حملةٌ سريةٌ ممنهجة وضعها مع «فؤاد الألفي» للوصول إليها... بدءًا من صديقاتها منذ الطفولة، مرورًا برفقائها في النادي، وانتهاءً بزملائها في الجامعة، قلبَ الإسكندرية والقاهرة رأسًا على عقب بحثًا عنها، فتش

أجزاء مصر كلها؛ فلم يجد لها أثرًا يُذكر، خطر له أنه ربما تكون قد رحلت عن البلاد فلم يكذب خبرًا، استعلم عنها في جوازات المطارات الجوية كافة، في أسماء المسافرين خلالها أو عبر الموانئ، مشط كل فجٍ عميقٍ قد تطاله أياديه العديدة، ولكن الأمر قاده في النهاية إلى طريقٍ مسدودٍ. حتى إنه تنازل عن كبريائه وذهب إلى «رشيدة» واستحلفها بأن تخبره بمكانها لو كانت تعلمه، وعدها بأنه لن يمس «فريدة» بأي سوءٍ ولكن فقط لتخبرها لو كانت حقًّا تعلم مكانها بأن تعود.. لتعلمها بأن والدها يُأمنها على نفسها ويطلب منها العفو عمّا قد صدر منه آنفًا، ولكن «رشيدة» كانت مثلنا جميعًا منهارة لما حدث... غير قادرةٍ على الاستيعاب، ولا تعلم عن أمر «فريدة» أي شيء.

أيام وليال وشهور قضاها في رحلة بحث محمومة دون فائدةٍ ترجى وكأنها تبخرت من على سطح البسيطة، أو كأن الأرض قد انشقت طبقاتها واجتذبتها شياطينها نحو الأسفل قبل أن يلتحم أديمها وتنغلق عليها من جديد.

الغريب في الأمر يا «ريم» أن فرارها هذا لم يلق به هنالك في عرض الدنيا بعيدًا عني، ولكنه أعاده إلى شواطئي

مـرة أخـرى، عـاد إليَّ وكأنـه طفـل رضيـع لا يلتمـس الأمـان إلا بـين أحضـاني، طفـل يفـزع مـن كل هـذا العـالم الخارجـي ولا يأنـس إلا وهـو بـين يـدي «ماما»... كنـت أنـا أمـه التـي خـرج مـن ظلمـة رحمهـا إلى معـترك الحيـاة؛ فلـما آذتـه بخطوبهـا وأدمـت قلبـه بشـفارها؛ عـاد إليَّ مـرة ثانيـة يجـر أذيـال خيبتـه ليرتمـي بـين راحتـي قلبـي ويسـتظل بسـحابات أمـنٍ تلبـدت بهـا سـمائي. عـاد إليَّ «وجيـه» ولكنـي أنـا التـي لم أعـد إليـه، قـد أكـون عـدت إليـه جسـدًا يسـكن بـين جنباتـه، قلبًـا يحتـوي آلامـه إكرامًـا لأيامنـا السـوابق، ولكـن روحـي أبـدًا لم تعـد... ظلـت هائمـة هنـاك بـين أروقـة إهمالـه، وسـط ضواحـي نزواتـه التـي ألقـاني عـلى قارعتهـا مسـلوبة الكرامـة، مهـدورة الكبريـاء، عـاد إليَّ «وجيـه»... ولكنـي أنـا التـي لم أعـد يـا «ريـم».

هـذا عـما كان مـن أمـر «وجيـه»، أمـا عـن «باسـل» فهـو قـد تغـير كـما أخبرتـك في جلسـاتنا السـابقات، تحـول كليًّـا منـذ أن علـم بتلـك القصـة المشـؤومة بـين شـقيقته و«أكـرم»، تلـك الفاجعـة التـي خلفـت في كلٍّ منـا صدعًـا لم يلتئـم... «باسـل» ذلـك العاقـل الرزيـن، الحنـون المتفهـم المكتمـل، غـدا آلـة صـماء بكـماء، اسـتبدل مفاهيمـه عـن طبائـع البـشر بتلـك القناعـات

الهشة التي طالما حاول والده إرسائها بداخله -والتي كنتُ ألومه عليها بيني وبين نفسي- تغير ولدي كليًّا يا «ريم» وكأنه ما عاد هو... أغرق نفسه في عالم مصمت من الحسابات والأرقام ومؤشرات البورصة، أخذ في الاغتراف من بحر المكائد الذي تفرضه عليه تداعيات السوق، ارتقى سلم النجاح «الأسيوطي» بخطواتٍ بدت له وقتها متزنة، ولكن فاته أن ينتبه لكل تلك المؤامرات التي تحاك ضده، أو ربما كانت تحاك من الأساس ضد «وجيه» ومجموعته الاقتصادية الضخمة؛ فطالت «باسل» بحكم كونه أصبح المسيطر الرئيسي على سير خطة العمل، والمتحكم الأوحد في إصدار القرارات بعد أن خلع عليه «وجيه» هذا المنصب.

طالته مؤامراتهم فزعزعت ثباته وهزت تماسكه فوق القمة، الأمر الذي انتبه إليه والده منذ البداية؛ فنصحه بالتأني في اتخاذ القرارات، لم يشأ أن ينتزع منه كل تلك السلطات كي لا يرتج عليه الأمر ويفقد تلك الثقة التي بدأ يكتسبها والتي طالما تمناها عليه والده، كان يريده صلبًا، راسخًا، لا يقهر.

في الحقيقة يا «ريم» أن «باسل» امتثل لأوامر والده في البداية، أو هو حاول الامتثال، أو قد يكون تظاهر بذلك، لا

أحد يعلم حقيقة الوضع، ولكن الأمر الذي أستطيع الجزم به أن السحر قد انقلب على الساحر وقتها. زادت وتيرة الخلاف بينه وبين والده بسبب بعض الصفقات الخاسرة التي أدت تصرفاته الرعناء إلى إقحامهم فيها، كل ذلك و«وجيه» لا يزال يرتجي تلك الصحوة التي ستعيد ولده إلى صوابه مرة أخرى، ولكن تلك الصحوة كانت قد تأخرت كثيرًا وأصبح من الجلي أن غياباتها لن تنجلي قط؛ فاسترد «وجيه» منه الصلاحيات كاملة، ولكن بعد ماذا يا «ريم»؟ لقد اهتز مركز المجموعة المالي وسط سوق العمل، لم تعد تعتلي قمته، حقًّا ما زالت مجموعة «الأسيوطي» من كبار المجموعات الاقتصادية في السوق، ولكنها لم تعد أكبرهم على الإطلاق إن كنتِ تفهمين مقصدي.

تسألين عم استجد في شأن «دينا» و«سلمى»؟ حسنًا يا «ريم»... لم يحدث الكثير في حياة «دينا»، أنتِ تعلمين أنها قد زُفت إلى «هاشم» منذ عامٍ وثلاثة أشهر، أمورهما معًا مستقرة كثيرًا، إنها تحبه حقًّا على عكس ما ادعت «سلمى»، أو ربما تكون قد أحبته بعد ارتباطهما، لا أعلم... فمنذ زمنٍ لم يعد هناك ما أستطيع الجزم بشأنه.

أما عن «سلمى» فقد ازداد ابتعادها عن كل من حولها، لم تعد مصدر بهجة لكل فرد منا كما كانت من قبل، أغرقت نفسها في الاستذكار، أصبحت تحقق نتائج مبهرة في الدراسة كل عام، حتى إن جميعنا يتوقع لها أنها ستغدو أستاذة بالجامعة ذات يوم، الأمر الذي يبدو أنه يسعدهم كثيرًا هنا، ولكني لا أجد له صدى في نفسي، فما جدوى أن تكون ابنتي التي ربيتها وسهرت على راحتها منذ كانت في الثانية من عمرها أستاذة جامعية بعد أن تفتت شملنا هكذا! وهل سيضيف ذاك المنصب لنا شيئًا؟ وإن كان كذلك فلِمَ لم يعتد «وجيه» به عندما جاءه «أكرم» أستاذًا جامعيًّا طالبًا الاقتران بـ «فريدة»؟ أعلم أن وضعه الاجتماعي كان هو سبب هياج «وجيه» وقتها، ولكني لا أملك إلا أن أتساءل: لِمَ لم يشفع له منصبه الوظيفي أمام زوجي إن كان ذلك المنصب حقًّا مهمًّا هكذا؟ وإن وافق وقتها، أما كان ذلك سيجنبنا كل تلك الدوامات التي ألقتنا فيها قراراته وردود أفعاله؟ تساؤلات مهلكة تدور رحاها بداخلي منذ زمن وتلقي بظلالها القاتمة على قلبي، تساؤلات يخثر صداها الحلم بأوردتي، فيستلبني روحي ويفقدني الاستمتاع بتلك الحياة.

لـذا يـا «ريـم» عندمـا أتيـتِ أنـتِ بـذاك العـرض وطرحتِـه عـلى مسـامعي وافقتـك دون تفكـيرٍ كثـير. أذكـر جيـدًا أن ذلـك الأمـر كان منـذ ثلاثـة أشـهرٍ كاملـة، عندمـا التقيتـكِ لـدى «رشـيدة»، لا يـزال صـدى كلماتـكِ يطـن بعقـلي، أتذكـره وكأنـه حـدث بالأمـس... عندمـا اقترحـتِ عـليَّ تدويـن مذكـراتي الخاصـة.

يومهـا ظننتـكِ تمزحـين معـي، ولكـن تلـك النـبرة التـي غلفـت صوتـكِ وقتهـا وأنـتِ تُعيديـن عـليَّ اقتراحـكِ لمـرة ثانيـة أنبأتنـي أنـكِ تأخذيـن الأمـر عـلى محمـل الجـد، خاصـة عندمـا أخبرتِنـي بالأسـباب التـي دفعتـكِ لأن تطلبـي منـي ذلـك، دعينـي أسـتعير كلماتـكِ وأنـتِ تقولـين لي أني زوجـة رجـلٍ مـن أشـهر رجـال الأعـمال في وطننـا كلـه، وسـليلة عائلـة مـن أعـرق العائـلات كافـة، مـرت عـليَّ العديـد والعديـد مـن الأحـداث، ومـن المؤكـد أن رحلـة حيـاتي يوجـد بهـا الكثـير الـذي يسـتحق أن يخـرج إلى النـور عـلى حـد قولـكِ.

ضحكـت سـاعتها مـن قولـكِ هـذا ولم أعقـب عليـه، لـن أخفيـكِ سرًّا أن اقتراحـكِ هـذا قـد وطـنَ بداخـلي عـلى الفـور، وجعلنـي أتسـاءل.. لِمَ لا أفعـل ذلـك حقًّـا ولـو مـن بـاب إزجـاء

الوقت؟ حتى أتاني عرضكِ مرة ثانية عبر الهاتف لتقترحي بأن يتم ذلك ويخرج على هيئة رواية ينوه على صفحاتها بأن أحداثها واقعية، هذا إن كنتُ أخشى من خروج الأمر على شكل سيرة ذاتية تحمل اسمي الحقيقي على حد قولكِ يومها؛ فوافقتك دون تردد... واتفقنا على أن تقومي أنتِ بتلك المهمة لسببين رئيسيين: أولهما أنكِ صحفية يشار إليها بالبنان، وبإمكانكِ القيام بالأمر على أكمل وجه، وثانيهما أنكِ ابنة «زينب» رفيقة صبانا أنا و«رشيدة»، أنتِ وُلدتِ وكبرتِ بيننا نحن الثلاثة، وأني أُعد في منزلة خالتكِ، فمن سواكِ أستطيع ائتمانها على أسراري الخاصة، وأثق بأنها لن تتلاعب بي أو تبتزني!

كان لي شرط واحد فقط أثق بأنه لم يغب عن خاطركِ ولو للحظات، أن نقوم أنا وأنتِ بتسجيل تلك الأحداث في جلساتٍ خاصة تضمنا نحن فقط، وأن أحتفظ أنا بتلك الاسطوانات لدي هنا حتى أقرر متى يحين الوقت المناسب لأن أعطيها لكِ لتقومي بتفريغها وتدوينها في كتاب خاص بعد تغيير أسماء الشخصيات، اتفقنا على ذلك وحددنا يومًا واحدًا من كل أسبوع نلتقي به سويًّا لاستكمال ما بدأناه...

أثــق أن ذلــك الوقــت لــن يتأخــر كثــيرًا يــا «ريــم»، فقــط لتتحــلي ببعــض الصــبر. أعتقــد أن مــا حدثتــكِ بشــأنه اليــوم كافٍ للغايــة، لننهــي حديثنــا إذًا حتــى نلتقــي في ميعادنــا القــادم، لا تنــسي تدويــن رقــم الأســطوانة عليهــا مــن الخــارج كــما اعتــدتِ؛ حتــى لا تتداخــل الأحــداث مــع بعضهــا البعــض عندمــا تقومــين بمهمــة إفــراغ كل تلــك التســجيلات.

مــاذا تنتظريــن يــا «ريــم»؟ هيــا.. أغلقــي التســجيل يــا ابنــة «زينــب» وصُبــي لنــا بعــض الشــاي لنتناولــه، وتعــالي لتجلــسي بجانبــي هنــا لأقــوم بــدوري في اســتجوابكِ ولتخبريــني عــن ذلــك الشــاب الوســيم الــذي تقــدم لخطبتــكِ، وهــل دق قلبــكِ أخــيرًا وأعلــن اســتعداده للاستســلام أم لا أيتهــا الحبيبــة؟

الفصل الحادي عشر

- هـا قـد علمـتُ اليـوم فقـط أني قـد ظلمـتُ شـمس الشـتاء زمنًـا طويـلًا.

انسـاب صـوت «دينـا» إلى أسـماع «عاليـة» حيـث تجلـس في حديقـة القـصر الخلفيـة، فابتسـمت ونهضـت مـن مكانهـا تحتضنهـا في شـوقٍ وهـي تقـول:

- لقد اشتقت إليكِ كثيرًا حبيبتي.
- أنـا أيضًـا قـد اشـتقتُ إليـكِ يـا خَالَتِـي، وظلـت صورتـكِ الحبيبـة هـذه تحتـل فضـاء أحلامـي ليلـة أمـسٍ، لـذا فـما إن أصبـح الصبـاح حتـى قـررتُ أننـي لـن أذهـب

إلى المستشفى اليوم، وأنه لا بد لي من المجيء إليكِ والمكوث معكِ طوال اليوم.

اتسعت ابتسامة «عالية» وأسرعت تقول:

- أحقًّا ما تقولين يا حبيبتي؟ أستمكثين هنا معنا طوال اليوم! أنا لا أصدق أذني، لو أني أعلم أن زيارتي لكِ في الحلم ستدفعكِ لقضاء يومٍ كاملٍ هنا معي لعجلتُ بها منذ زمن.

ضحكت «دينا» ملء قلبها ونظرت إلى خالتها نظرة ذات مغزى ثم قالت:

- في الحقيقة أنه ليس الحلم وحده هو ما دفعني لزيارتكِ اليوم، ولكنه أمر آخر أعلم أن قلبكِ سيتقافز طربًا لو أخبرتكِ به.
- هيا إذًا أسرعي وأخبريني.. فمنذ زمنٍ لم أضبط قلبي متلبسًا بطرب التقافز.
- لقد أجريتُ اختبارًا منزليًّا خاصًّا بالحمل هذا الصباح وجاءت النتيجة إيجابية.
- أحقًّا ما تقولين؟

أغمضت «دينا» عينيها في جذل وهزت رأسها مبتسمة، فاحتضنتها خالتها من جديد وهي تهتف:

- مبارك لك يا حبيبتي، أتمه الله لكِ على خير.

نزعت «دينا» نفسها من بين أحضانها برفقٍ وهي تقول:

- لم أشأ إخبارك عبر الهاتف، أردت إعلامكِ بهذا وجهًا لوجه؛ لأرى تلك الفرحة التي تتراقص بين عينيكِ الآن.

- حمدًا لله يا حبيبتي.. أرأيتِ يا حضرة الطبيبة الماهرة؟ ألم أقل لكِ ألا تتعجلي الأمر وأن الحمل سيحدث بإذن الله، لو أنكِ فقط توقفتِ عن ذلك القلق بشأن تأخيره.

- حقًّا يا حبيبتي أنتِ دائمًا ما كنتِ تؤكدين لي ذلك.

- هل أعلمتِ «هاشم» بالأمر أم لا؟

هزت لها رأسها علامة النفي وهي تجيب:

- لم أخبره حتى الآن، أردتُ أن تكوني أنتِ أول شخصٍ أشاركه فرحتي بهذا الخبر، ألستِ حبيبتي وأمي وأقرب شخص لي في هذا الوجود!

اغرورقت عينا «عالية» بالدموع فأسرعت تضمها إليها في حنانٍ وهي تقول:

- لا حرمتكِ أبدًا يا حبيبتي.

صمتت للحظاتٍ وكأنها تذكرت شيئًا ما ثم ابتعدت عنها قليلًا وهي تستطرد:

- ما الذي كنتِ تقولينه عقب قدومكِ مباشرة عن شمس الشتاء؟

قهقهت «دينا» قائلة:

- كنتُ أقول إن شمس الشتاء هذه قد نالها ظلمٌ بينٌ من قِبلي، فقد كنتُ دائمًا ما أظنها تتوارى كسلًا خلف الغمام، ولكني أيقنتُ اليوم أن تواريها هذا ما هو إلا خجلًا من نور قلبكِ الوضاء يا حبيبة قلبي.

وكزتها خالتها برفقٍ في كتفها وهي تقول متسائلة في حياء:

- منذ متى تعلمتِ المشاكسة أيتها الطبيبة؟

همت «دينا» بإجابتها عندما اقتحمها صوت «سلمى» وهي تقول ساخرة:

- إن «دينا» ماهرة في فنون التلاعب بالكلمات منذ زمنٍ بعيدٍ، ولكن يبدو أنه لا أحد غيري قد انتبه إلى ذلك من قبل.

أجفلت «دينا» ونظرت صوبها باندهاشٍ بينما اتجهت أنظار «عالية» إليها في لومٍ وهي تقول في تلطفٍ مصطنع:

- مرحبًا بكِ يا «سلمى»، منذ متى وأنتِ هنا؟

- منذ أن أخبرتكِ «دينا» بأنكِ أول شخصٍ يعلم بشأن حملها.

أسرعت «عالية» لتقول:

- لم نشعر بقدومكِ إلا الآن، أقبلي إذًا لتسلمي على شقيقتكِ ولتهنئيها.

تقدمت «سلمى» باتجاههما ومدت يدها تسلم على شقيقتها قائلة في جمود:

- مبارك لك يا «دينا»... أعتقد أنكِ قد نلتِ الآن كل ما حلمتِ به وخططتِ له بصبرٍ وتأنٍ.

احتقن وجه «دينا» وهي تسألها في صوتٍ تشوبه معالم الاستنكار:

- لا أفهم ما الذي ترمين إليه من وراء قولكِ هذا! ولكنه لا يبشر بخيرٍ على أي حال.

بثباتٍ تلوح بين أروقته سهام الاتهام أجابتها «سلمى» قائلة:

- أظنك تعلمين جيدًا ما الذي أرمي إليه.

صمتت «دينا» للحظاتٍ تستجمع أفكارها، ثم قالت:

- أتعلمين؟ حسبتكِ تمزحين في البداية عندما استهللتِ قدومكِ بذاك القول حول أني أجيد التلاعب بالكلمات، ولكني أوقن الآن أن وراء كل ما تقولين أمرًا ما... فهلّا أفصحتِ عن مرادكِ الآن!

استشعرت «عالية» قرب هبوب عاصفة كل منهما فأسرعت تحول بينهما وهي تقول في غضب:

- على رسلكما أنتما الاثنتان، كيف تجرؤان على التحدث إلى بعضكما بتلكما الطريقة في وجودي؟

التفتت إليها «دينا» قائلة في انفعال:

- فلتوجهي كلامكِ إليها يا خَالَتِي، فهي التي بدأت بالتحدث بتلك الطريقة الساخرة متجاهلة وجودكِ تمامًا ومتناسية كذلك أنني شقيقتها الكبرى.

ردت «عالية» في صياح:

- كفى! لا أريد مزيدًا من المشاحنات، لتنتبها جيدًا بأننا في الحديقة ولسنا بالقصر، هيا بنا إلى الداخل إن كنتما ستستمران في التحدث إلى بعضكما بتلك الكيفية.

في عنادٍ قالت «دينا»:

- لن تطأ قدماي أرض القصر من الداخل، حتى أعلم ما الذي كانت تقصده «سلمى» بكلماتها تلك.

أسرعت «سلمى» لتجيبها قائلة:

- أنتِ تعلمين جيدًا مقصدي يا «دينا»، فلا داعي للتظاهر بغير ذلك.

- وإن كنتُ أعلمه حقًّا يا ابنة أبي فما الداعي لأن أقف بين يديكِ الآن لأستفسر منكِ عم تقصدينه بكلماتكِ؟

أمسكت «عالية» بيد «سلمى» تستحلفها قائلة:

- لنؤجل هذا الكلام الآن يا «سلمى» بالله عليكِ، ليس هذا هو الوقت المناسب لمشاحنتكما تلك.

ربتت «سلمى» على يد خالتها وهي تقول:

- يبدو أن الوقت قد حانت مناسبته أخيرًا يا خَالَتِي لأواجهها بحقيقتها...

ثم التفتت إلى شقيقتها وهي تكمل:

- أتريدين أن تعرفي ما الذي كنت أرمي إليه من وراء كلماتي هذه؟ حسنًا يا «دينا» سأوضح لكِ مقصدي كاملًا، وهو أني أعرفكِ جيدًا، أعلم حقيقة طباعكِ وأحفظها عن ظهر قلب... أنتِ تجيدين ادعاء المثالية أمامنا جميعًا خاصة أمام والدي، دائمًا ما كنتِ تحاولين السير على نهجه وتسارعين إلى التهليل له في كل ما يقول ويصنع، ترددين ذات الكلام الذي ينطقه هو وتتصنعين اقتناعكِ التام بوجهة نظره في شتى أمور الحياة؛ فأصبحتِ الأثيرة إلى قلبه من بيننا جميعًا كونكِ صورة متطابقة منه، حتى إنكِ أكثرنا استعلاءً في التعامل مع الخدم أو من هم أقل منا شأنًا... أتنكرين ذلك؟

نظرت إليها «دينا» مليًّا ولم تعقب، ثم أردفت بعد قليلٍ في ثباتٍ ظاهري:

- ومن قال لكِ أني سأنكر اتباعي لنهج والدي في الحياة في أغلب الأمور؟ ذاك أمر لم أحاول نفيه من قبل ولن أُقدم على ذلك الآن، بالفعل أنا شديدة الاقتناع بأغلب

آرائه سواء في تعاملاته مع مواقف الحياة المختلفة أو في طبيعة نظرته لكل المحيطين بنا، فأنا أعتبره مثلي الأعلى وأيقونة النجاح التي أسعى لأصل إلى قدرٍ ضئيلٍ فقط مما وصل إليه بفضل حنكته وحُسن تقديره للأمور، قد تكونين محقة في أمرٍ واحدٍ فقط في كل ما قلته عني، ألا وهو طريقة تعاملي مع الخدم ومن هم أقل منا شأنًا كما تقولين، لا أنكر أني أنظر لهم نظرة دونية وأتعمد إشعارهم بذلك، ولكن ألم يجل بخاطرك قط أني أفعل ذلك لاقتناعي التام بوجهة نظر أبي أيضًا في تلك الجزئية؟ لقد خلقنا الله طبقاتٍ فوق بعضنا يا شقيقتي العزيزة، لم يساوِ بيننا في الشكل ولا التكوين ولا الطبائع ولا حتى في الرزق، مع أنه لو شاء ذلك لفعل، أوصلكِ ما وودتُ قوله! فما العجب إذًا من التزامي بالجانب الذي خلقني عليه الله في هذه الحياة، وعدم حيادي عن وضعي الذي وُلِدت فوجدتني أرفل فيه؟ أنا شديدة التيقن من أن الله لو أراد لخلقنا سواسية، ولكنه جعلنا مختلفين هكذا لحكمة إلهية لا

يعلمهـا سـواه... فمـن أنـا حتـى أعـارض حكمـة الله في خلقـه؟

صمتت قليلًا تبتلع ريقها ثم أردفت في انفعال:

- هـذا بخصـوص تلـك الجزئيـة، أمـا فيـما يتعلـق بموافقتـي لـه في أغلـب آرائـه... فدعينـي أخـبركِ بأنـه يصـدف فقـط أن آرائـه تلـك توافـق رأيـي الشـخصي حينهـا، فـما الضـير في ذلـك مـن وجهـة نظـركِ؟ أكان الأمـر سـيغدو أكثـر إمتاعًـا لـكِ لـو أني تظاهـرت باختـلافي معـه كـما تفعلـين أنـتِ أحيانًـا لينتفـض ويقلـق عليـكِ فيوليـكِ اهتمامًـا أكـبر ويـسرع بالتفكـير في كيفيـة ضمـكِ إلى حظيرتـه! لا تنظـري إليَّ هكـذا وكأنـكِ تسـتنكرين قـولي هـذا، فأنـتِ أيضًـا أسـيوطية الهـوى مثـلي تمامًـا ومثلنـا جميعًـا، كلنـا هنـا تحـت هـذا السـقف نحمـل جينـات «الأسـيوطي» بطريقـةٍ أو بأخـرى، قـد تكـون تلـك الجينـات نقيـة، واضحـة، جليـة، فتعلـن عـن نفسـها بسـهولة ويـسر كـما في حالتـي، وقـد تكـون جينـات متواريـة تنتظـر الفرصـة السـانحة لتظهـر في يـومٍ مـا كـما حـدث مـع «باسـل»، وكـما أثـق

بأنه سيحدث معك ذات يوم، لا أحد منا هنا يحمل جينات متنحية، لا أحد...

أنتِ تقولين أنكِ تعلمين طبيعة شخصيتي تمام العلم، وتحفظينها عن ظهر قلب كما تدعين، دعيني إذًا أخبركِ بأنكِ لا تعرفينني البتة. أنا وأنتِ شديدتا الاختلاف حقًّا، وذاك أمر وارد بين الأخوة، كونكِ لا تستطيعين تقبل اختلافي عنكِ فتلك مشكلتكِ الخاصة وأنا غير مطالبة بالتغير كي أُرضيكِ أو أُرضي أي شخصٍ آخر أيًّا من كان، فهل استوعبتِ الأمر الآن أم أنه يحتاج مني لشرحٍ إضافي؟

نظرت لها «سلمى» بتحدٍ وهي تقول:

- حسنًا يا «دينا» ذلك ما كان من أمر أبي، فماذا عن «هاشم»؟

باستغرابٍ شديدٍ تساءلت «دينا»:

- ما له «هاشم» هو الآخر؟

أسرعت «عالية» بالتدخل قائلة:

- كفى بالله عليكما لا أريد سماع المزيد.

كررت «دينا» سؤالها في إصرار وكأنها لم تسمع ما قالته خالتها:

- أقول ما له «هاشم» يا «سلمى» أجيبيني؟

لترد «سلمى» في انفعال:

- أتنكرين بأنكِ كنتِ تعلمين بحب «فريدة» له قبل ارتباطكما وعلى الرغم من ذلك لم تمانعي ذلك الارتباط؟

بهتت «دينا» من قولها هذا فصرخت مستنكرة:

- أي قولٍ أخرقٍ دنيءٍ هذا!

ثم صمتت قليلًا تستوعب اتهام شقيقتها، مادت بها الأرض عندما تيقنت من الأمر واسترجعته بعقلها، فأسرعت خالتها إليها وأجلستها على المقعد المجاور لها وهي تطلب منهما عدم الخوض في هذا المستنقع الآسن، ولكن «دينا» نظرت إليهما متسائلة في إعياء:

- أيعقل أن «فريدة» كانت تحب «هاشم» حقًّا؟

قالت «سلمى» في هجوم:

- وكأنكِ لا تعرفين؟

- أقسم أني لم أعلم عن ذلك الأمر شيئًا قبل هذه اللحظة، أتظنين أني بكل تلك الخسة حقًّا؟

قالت «عالية» موجهه كلامها إلى «دينا»:

- فلتهدئي يا حبيبتي، لا أحد منا صدق أنكِ كنتِ على علمٍ بهذا الأمر من قبل.

التفتت إليها «دينا» تقول في دهش:

- لا أحد منكم! أهذا يعني أنكِ كنتِ على علمٍ بهذا الاتهام الحقير يا خَالَتِي أنتِ الأخرى؟

ارتج الأمر على «عالية» فلم تدر ماذا تقول، فخفضت رأسها خجلًا، خفضتها ارتباكًا.

تنهدت «دينا» وهي تيمم وجهها صوب «سلمى» متسائلة في وهن:

- ألدى «فريدة» علم باتهامكِ هذا؟

صمتت «سلمى» ولم تعقب ولكنه كان صمتًا يتكلم.. صمتًا يصرخ قائلًا بصوتٍ ذي فحيح «نعم.. كانت تعلم»... صمتًا طال عواؤه قلب «دينا» فصرخت من وقع صداه على شغافها قائلة:

- أيعني هذا أنكِ قد سممتِ أفكارها تجاهي؟

انخرطت في البكاء عقب قولها هذا، فاحتضنتها خالتها محاولة تهدئتها، أخذت «سلمى» تنظر إليها حائرة بينما تتكالب عليها سحب الندم، تملأ سماءها، تمطرها تساؤلات بعمق غصتها... (أيعقل أنها أخطأت في الحكم؟ أيكون قد هيئ إليها أن «دينا» على علم بشأن «فريدة» وحبها لـ «هاشم»؟ أتكون «دينا» بريئة حقًّا من ذلك الاعتقاد الذي سيطر عليها وجعلها تعتقد فيها هذا الأمر)؟

انسالت دموعها في صمت وقالت في شرود وكأنها تحادث نفسها:

- ولكن كيف لم تلحظي اهتمامها به، ونظراتها التي كانت تحتضن قسماته كلما التقينا سويًّا!

أسرعت «دينا» تقول في لوعة:

- لم ألحظ أي شيء مما تقولينه، أنتِ تعلمين أن «فريدة» هي أكثرنا رقة في تعاملاتها مع الجميع، أكثرنا اهتمامًا بمن حولها، هذا هو ديدنها دائمًا، لقد كنتُ أرى «هاشم» بالنسبة لها شأنه شأن الآخرين، ربما رأيتِ أنتِ خلاف هذا لأنكِ أكثر قربًا منها، فلِمَ لم تخبريني

وقتها؟ ربما لو أخبرتِني بالأمر لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

أجهشت «سلمى» بالبكاء، واقتربت من شقيقتها قائلة في صوتٍ مرتعد:

- قد أكون أخطأت عندما ظننتُ أنكِ تعلمين بشأن حبها له، ولكن كل الشواهد كانت تؤكد لي صدق ظني هذا، كل ما أريدكِ أن تعلميه الآن أني لم أسع لتسميم أفكارها تجاهكِ كما تقولين، إنما فقط قد قلت ما قلته في لحظة انفعالٍ طارئٍ سيطرت على مشاعري وقتها...

رفعت «دينا» إليها عينين دامعتين وقالت في صوتٍ متحشرجٍ وهي تستعيد جزءًا من عبارة شقيقتها:

- «كل الشواهد كانت تؤكد صدق ظنك»! ومنذ متى كان حكمكِ صائبًا على الأشياء! أتعلمين...؟ دائمًا ما كنتُ أراكِ هوجاء شديدة الرعونة، ولكني اليوم تيقنتُ أنكِ أيضًا أكثرنا حماقة.

ربتت «عالية» على وجنتيها قائلة:

- لا عليكِ يا حبيبتي، إن «سلمى» هي شقيقتكِ الصغرى التي تحبكِ وتقدركِ كثيرًا، وأنا أثق أنها ما أرادت أن توقع بينكِ وبين «فريدة» يومًا، ولا أن توغر صدرها تجاهكِ، إن ما حدث قد حدث منذ أعوام وانقضى الأمر، لنلق بكل هذا خلف ظهورنا الآن، ولنبدأ صفحة بيضاء معًا، ففي نهاية الأمر نحن أسرة واحدة لا غنى لأحد منا عن الآخر.

نظرت إليها «دينا» متسائلة في انهيار:

- أي أمر هذا الذي سنلقيه خلف ظهورنا يا خَالَتِي! أمر اعتقاد «سلمى» أني خادعة منافقة أسعى لنيل رضاء أبي بتظاهري بعكس ما أنا عليه؟ أم أمر ظنها أني قد اختطفتُ حبيب شقيقتي الوسطى منها دون أن يرمش لي جفن؟ أم أمر حرصها على إعلام «فريدة» بظنها هذا؟ أخبريني أي أمرٍ منهم الذي ينبغي عليَّ إلقاءه بعيدًا وأعدكِ أني سأفعل.

غلبها البكاء فتهانفت مستكملة:

- أقسم أني سأفعل.

احتضنتها «عالية» بإحدى يديها قائلة في رجاء:

لتلزمي الهدوء الآن يا حبيبتي، ودعي الأيام تتكفل برأب صدع كل ما حدث. اجتذبت «سلمى» بيدها الأخرى وأدنتها منها وهي تكمل:

- ستداوي الأيام كل تلك الجراح التي خلفها هذا الشجار بينكما، ولن يتبقى من كل ما حدث غير الحب الذي أظلكما منذ البدء، أليس كذلك يا «سلمى»؟

هزت لها «سلمى» رأسها في تسليم وكأنها تثق بأن الأيام القادمة ستتولى حل تلك الأزمة..

ولكن هل ستفعل الأيام ذلك حقًّا! سنرى معًا صدق ظنهما هذا من عدمه.

الفصل الثاني عشر

استيقظ «وجيه» مع نسمات الصبح الأولى تغمره مشاعر عدة متضاربة ما بين الرضا والطموح، الاطمئنان والتفكير في المستقبل، السعادة بعد طول انتظار والترقب لأخطارٍ قد تحلق سحاباتها في الأفق، ولكن شعوره بالسعادة كان يطغى على باقي أحاسيسه الأخرى؛ فقد اطمأن أخيرًا وبعد فترات قلقٍ متعاقبة على الوضع المالي لمجموعة شركاته. كانت الأمور قد أخذت في التدهور الفجائي منذ فترة لا بأس بها من الوقت، خيطٌ رفيعٌ تم جذبه من المسبحة؛ فانفلتت أول حبة مرتحلة صوب المدى، ثم تساقطت حباتها تباعًا تباعًا، منحدرٌ زلقٌ كانت تسير عليه عربة استقرار مجموعاته عكس اتجاه الجاذبية الأرضية؛ فتتمكن من الصمود حينًا وتستجيب

لنداءات السفح حينًا آخر فتنحدر، في واقع الأمر أنه لا أحد كان يلحظ انحدارها نحو القاع، كون ذلك الانحدار كان بطيئًا وغير محسوس.

ولكن طبائع الأشياء تخبرنا أن استمرار الوضع على تلك الكيفية كان سيودي بها في نهاية الأمر إلى مصيرها المحتوم هناك عند الدرك الأسفل من المنحدر، غير أننا هنا في حضرة «وجيه الأسيوطي» حيث تنقلب قوانين الطبيعة رأسًا على عقب، وتنحني المسَّلمات لتعلن استسلامها التام لحنكته في سوق العمل، والتي كان لها العامل الأكبر في نهوضه عقب كل عثرة اعترضته، بفضل تلك الحنكة وبفضل ضربة حظٍ تأتت له تمكنت عربته من الاستقرار لبعض الوقت فوق ذلك المنزلق، تلتها ضربات حظ تاليات ارتفعت به حثيثًا حثيثًا نحو الأعلى فأخذ في الاقتراب من القمة، ولكنه على الرغم من ذياك الارتفاع، على الرغم من احتكاره لضربات الحظ تلك... كان يداخله شعور ببعض القلق، فمنذ متى كان المرء يأمن لضربات الحظ في زماننا هذا؟ إنه بإمكانها أن تعلو بك حد السماء السابعة إن كانت راضية عنك، وبمقدورها أيضًا أن تسحبك خلفها في منحدر الهبوط إذا ما حلا لها أن

تكشر عن أنيابها أمامك، ولكن يبدو أن ضربات الحظ مؤخرًا قد راق لها عقل «وجيه» فاستطابت مكوثها معه، وسرها تواجدها بين دهاليزه. ابتسم مُحَدثًا نفسه بأن «ضربة الحظ هذه لا بد وأنها من مجدودي الحظ لأنها التقت بشخصٍ يجيد اقتناص الفرص مثله».. كادت أن تنفلت منه ضحكة عندما فكر بذلك فأسرع بكتمها بإحدى يديه ووجه نظره نحو «عالية» النائمة بجواره، تنفس بارتياحٍ عندما طالع صفحة وجهها الحنون، زفرة طمأنينةٍ أطلقها وهو يرنو نحوها، فقد تحسنت أحواله معها في الآونة الأخيرة واستقرت أخيرًا عن ذي قبل، حقًّا أنها لم تعد كما كانت سابقًا بالضبط، ولكنه راضٍ تمامًا عما وصلت إليه أمورهما معًا، يكفي أنه أحس باستعدادها لمسامحته عما سبق وبدر منه في حقها، بدأ الأمر بقبولها رجاءاته لتقبل عودته ليقيم معها بذات الحجرة، ثم شيئًا فشيئًا أفسحت له مجالًا ليتحدث معها، كان يرتمي في أحضانها في نهاية كل ليلة عقب عودته من الخارج ليبدأ في الثرثرة حول كل ما حدث معه خلال ساعات العمل، كانت تستمع إليه في بداية الأمر وهي غير منصتة، وكأنها تؤدي دورًا منوطًا بها، واجبًا فرضه عليها عقد الزواج المبرم بينهما،

استغرقه هذا الأمر شهورًا عدة حتى أحس بذلك الدبيب هناك ما بين قلبها وعظامها... احتلته الفرحة وقتها وأورثه ذلك الدبيب الخافت ثقة في صدق أحاسيسه وتوقعاته عما سيؤول إليه حالهما معًا، الجميع من حولهما كانوا يستبعدون تمامًا عودتها إليه بالكامل ويستنكرونه؛ فمن وجهة نظرهم هي امرأة طُعِنت في أنوثتها من زوج أحبته ووهبته عمرها بكامله، فكيف لامرأة مكلومة المشاعر مثلها أن تصفو سماواتها له يومًا؟ كانوا يرونها ترتدي ثوب الكبرياء وتجول به بينهم في معترك الحياة، هو وحده كان يراها ترتدي قلبها، قلبها الذي امتلكه منذ شب عن الطوق، كان يعرفها كراحة يده؛ فراهن على عودتها إليه واتكأ على جدار الوقت... وانتظر، حتى أحس بذاك الوجيب يهتف باسمه من جديد على استحياء، فأسرع بامتطاء الفرصة وتقلد سنامها وأحاطها بسيلٍ من الأشواق، وتمكن من استرداد حقه في كل شبرٍ فيها بوقعٍ من صدى همساتٍ كانت تُذِيب تماسكها قديمًا، وها هي تؤدي دورها المعهود من جديد بنجاحٍ تامٍ.

اقترب منها برفق وطبع على جبينها قبلة حانية ونهض في رويةٍ محاذرًا أن يحدث صوتًا فيقلق مناماتها، اتجه صوب

الحمام فاغتسل، ثم أسرع بارتداء ملابسه وخرج من الغرفة عازمًا على الذهاب إلى العمل الآن، هو يعلم أن الوقت لا يزال مبكرًا ولكنه لا يستطيع صبرًا على الالتقاء بشريكه الجديد، ذلك الشريك الذي خطط لشراكته شهورًا عديدة.

كان قد وصل إلى سيارته في تلك اللحظة... لم يجد السائق في انتظاره بالطبع، فموعد ذهابهما إلى العمل لم يحن بعد، أخرج جواله وهاتفه متعجلًا إياه ثم دلف إلى السيارة، أغمض عينيه متطلعًا بأحلامه صوب المستقبل الذي يوقن بأنه سيكون باهرًا، هو يعلم ذلك جيدًا ويثق بحنكته وبتلك الحاسة التي يمتلكها، استغرقته أحلام اليقظة فلم يشعر بحضور السائق إلا عندما سمع صوته يخترق سحب أحلامه هاتفًا من وراء الغمام:

- عمت صباحًا سيدي!

ابتسم له في ود وهز رأسه محييًا طالبًا منه التوجه صوب مقر المجموعة.

أبصر معالم الطريق بانتشاء واسترق شهيقًا طويلًا احتفظ به بداخله قبل أن يطلق سراح زفراته مستعيدًا تلك الذكرى الأعظم في تاريخ حياته المهنية، عاد بذاكرته لبضعة

أشهر إلى الخلف حيث كان وضع مجموعة شركاته قد بدأ في الاستقرار، حين طفا على ساحة رجال الأعمال اسم مجموعة شركات «الأدهم»... مجموعة جديدة هي، يقال إن صاحبها مصري يحمل الجنسية الأمريكية ويقيم هناك في الولايات منذ سنوات طويلة، وأنه أحد أكبر رجال الأعمال في قارة أمريكا الشمالية بأكملها، وأن مجموعة «الأدهم» هي أولى المجموعات الاقتصادية التي قرر غزو الشرق الأوسط بها، والتي بدأت تجذب الأنظار إليها بنجاحاتها المتوالية وبحجم الصفقات المهمة التي استطاعت اقتناصها.

تذكر ذلك العرض العبقري الذي جاءه به الدكتور «رأفت» أحد كبار طاقم المحامين لديه، أتاه مقترحًا القيام بعملية دمجٍ بين مجموعة شركاتهم ومجموعة شركات «الأدهم»، قدم له دراسة شاملة لخطة الدمج تلك، والتي من شأنها أن ترتفع بأسهم شركاتهم سريعًا إلى عنان السماء، وكيف أنها ستفتح لهم أسواقًا جديدة في الولايات المتحدة الأمريكية وقارة أمريكا الشمالية بأسرها.

قضى أيامًا طويلة بصحبة الدكتور «رأفت» وفريق العمل الخاص به يتدارسون تلك الصفقة حتى تأكد له ألا شائبة

فيها، ثم بدأ العمل على قدمٍ وساق للاتصال بالمسؤولين عن مجموعة شركات «الأدهم».

تم عقد جلساتٍ ثنائية ضمت فريق العمل في مجموعته وفريق العمل في مجموعة «الأدهم» وعلى رأسهم «سالم عبد الرحمن» المدير التنفيذي للمجموعة والموكل من قِبل رئيس مجلس الإدارة باتخاذ القرارات والتوقيع بعد الرجوع لأعضاء المجلس. تم الاتفاق على عمل عقد اندماجٍ بالحيازة[1]، تقوم فيه مجموعة شركات «الأدهم» بشراء عددٍ من أسهم مجموعة شركاته يصل إلى ٥٢٪ من مجموع الأسهم ككل... كان هو يرغب في إبرام عقد اندماج بالضم[2] بدلاً من عقد الحيازة هذا، ولكن مجموعة «الأدهم» تمسكت باندماج الحيازة وأصرت عليه بحكم كونها الأقوى اقتصاديًّا، فلم يجد أمامه

---

(١) الاندماج بالحيازة: هو أحد أشكال الاندماجات الاقتصادية بين كيانين أو مجموعتين اقتصاديتين، ويتم ذلك من خلال شراء أحد المندمجين لأسهم الطرف الآخر أو لبعضها، ويتم ذلك بشكل تدريجي أو مفاجئ حسب القدرة المالية للطرف المشتري للأسهم.

(٢) الاندماج بالضم: ويقوم هذا النوع على ضم شركتين أو أكثر إلى بعضهما، وينتج عنهما كيان جديد يحمل اسميهما معًا، ويكون هذا الاندماج قائمًا على مجلس إدارة الشركتين معًا.

حـلًّا آخـر، كـما أنـه لم يجـد ضـيرًا مـن ذلـك، خاصـة وأنهـم قـد وافقـوا عـلى ذلـك الـشرط الـذي أصر عليـه بشـدة وهـو أن يحتفـظ الكيـان الجديـد الناتـج عـن الدمـج باسـم المجموعتـين معًـا.

كان عـلى ثقـة مـن صحـة خطـوة الدمـج هـذه، وكان متيقنًـا كذلـك مـن قدرتـه عـلى تخطـي عقبـة امتـلاك «الأدهـم» لأكثـر مـن نصـف أسـهم شركاتـه، وبأنـه يومًـا مـا سيسـتعيد كل تلـك الأسـهم، بـل وقـد يتخطـى الأمـر ذلـك ويكـون هـو الطـرف الأقـوى وقتهـا، فيتبـدل الأمـر ويسـعى لتوسـيع نطـاق مجموعاتـه، وقـد يقـوم باندماجـات جديـدة مـع كيانـات أخـرى يكـون هـو فيهـا صاحـب الحـق في الحيـازة، تاريخـه الحافـل في سـوق العمـل يجعلـه عـلى ثقـة مـن ذلـك.

ابتسـم لنفسـه في رضـا وهـو يتذكـر لحظـة توقيـع العقـد، وإحساسـه وقتهـا بأنـه قـد امتلـك السـماوات السـبع، أسرع بإخـراج هاتفـه وكـون رقـم «باسـل»، ومـا إن أتـاه صوتـه حتـى قـال:

- مرحبًـا يـا ولـدي هـل تجهـزت للذهـاب إلى المجموعـة أم لا؟

- مرحبًا أبي، يمكنك اعتباري أمام المجموعة الآن، إن هي إلا لحظات قلائل وأصل إلى هناك.
- مرحى... لقد ظننتك لم تستيقظ بعد.
- كيف ذلك يا أبي؟ أنا متشوق للغاية للقاء رئيس مجلس إدارة مجموعة «الأدهم» لأول مرة.
- وأنا أيضًا مثلك كلي حماس للقائه، أتعلم أنني من شدة حماسي لم أنم جيدًا ليلة أمس؟

ضحك «باسل» قائلًا:

- أكاد على هذا أقسم يا أبي... ولكن أخبرني كم سيستغرقك الوقت حتى تصل إلى هناك؟
- سأكون هناك في غضون خمس دقائق على الأكثر.
- ها أنا قد وصلت أمام المجموعة الآن، سأنتظرك بحجرة مكتبك إذًا.
- حسنًا، سأوافيك إلى هناك.
- في حفظ الله يا أبي.

أغلق هاتفه ثم التفت إلى السائق يستحثه الإسراع قليلًا... كان قد بدأ في التوتر وأخذ يفكر في ذلك اللقاء المرتقب، وفي

شريكه الجديد... ترى كيف يبدو؟ وهل سيكون صعب المراس أم ستتسنى له السيطرة عليه بسهولةٍ ويسر؟

مرت الدقائق المتبقية، ووجد نفسه أخيرًا يجتاز بوابة المجموعة ويتجه صوب مكتبه، التقى «باسل» أمام المكتب، فنظر إليه مستفسرًا عن سبب عدم تواجده بالداخل؛ فأخبره بأن شريكهم الجديد ينتظرهما داخل المكتب بالفعل، وأنه لم يرغب في لقائه وحده، وفضل انتظاره لملاقاته سويًّا، التفتا على صوت «سالم» مُرحبًا بهما داعيًا إياهما للدخول.

دلف ثلاثتهم إلى المكتب فطالعهم ظهر المقعد المدولب، يبدو أن الشريك الجديد يوليهم ظهره، تحدث «سالم» موجهًا كلامه للشريك الجديد قائلًا:

- «وجيه» بك و«باسل» بك حضرا لمقابلتكِ سيدتي.

نظر «باسل» متعجبًا نحو والده وفي ذهنيهما كلمة واحدة يلوكها عقلاهما في استغراب... «سيدتي»!

التفتت السيدة تجاههما تطالعهما في صمتٍ بينما تعلو وجهها ابتسامة ساخرة بعض الشيء، اعتلاهما الذهول وألقاهما فوق منحدر صمتٍ زلقٍ، ارتفعت يد «باسل» تلقائيًّا ليتشبث بساعد والده وكأنه يلتمس منه بعض التوازن، أو

كأنه يسأله عونًا فيما يرى، حتى قطعت هي حالة الذهول التي اعترتهما بأن قالت في لهجة ذات مغزى:

- مرحبًا بممثلي عائلة «الأسيوطي» هنا في مكتبي.

أطلق قولها سراح الكلمات على شفتيهما فأسرعا يقولان معًا في صوتٍ تعتريه مشاعر متضاربة:

- «فريدة»!

***

ارتمى «وجيه» بإنهاكٍ على الأريكة الموجودة بغرفة نومه، أغلق عينيه لبعض لحظات حتى شعر بأصابع «عالية» تلمس وجهه في رقة، فتح عينيه ونظر إليها في شرودٍ فسألته في رفق:

- قد عدت باكرًا على غير توقعي، لقد اعتقدت أنك لن ترجع حتى يرخي الليل أستاره.

ابتسم لها في إعياءٍ ولم يجب فأسرعت تقول في قلق:

- ماذا بِكَ يا «وجيه»؟ ألم يجر لقاؤك بالشريك الجديد كما أردت؟

ردد في مرارة:

- الشريك الجديد!

- أبدر منه ما أزعجك أم ماذا؟

نظر إليها طويلًا ثم لاح ظل ابتسامة على شفتيه وهو يقول في صوتٍ منكسر:

- أتعلمين من هو شريكي الجديد؟

- أخبرتني أن اسمه «أدهم عبد العزيز» على ما أذكر... صاحب مجموعة «الأدهم» أليس كذلك؟

هز لها رأسه في تسليم وهو يقول:

- نعم هو كذلك، ولكن أتعلمين من هو «أدهم عبد العزيز» هذا؟

استوقفتها تلك النبرة التي نطق بها سؤاله فأجابته في دهش:

- بالطبع لا أعلم من هو... ماذا هنالك يا «وجيه»؟ إن تعابير وجهك وطريقة كلامك لا تنبئ بخير، أخبرني عما حدث أثناء المقابلة وجعلك مهمومًا هكذا حتى لا يتآكلني القلق بالله عليك.

أغمض عينيه لهنيهة وكأنما يحتوي صورتها بين جفونه، ثم فتحهما وهو يربت على يدها ويقول في حنان:

- لكم يسعدني حقًّا أنكِ ما زلتِ تقلقين حيال ما يحدث معي...

نظرت له في حنانٍ ثم وضعت يدها الأخرى فوق يده وابتسمت قائلة:

- ومن لي غيرك لأقلق عليه؟ هيا هاتِ ما عندك فكلي آذان صاغية.

نظر في عينيها بترددٍ وكأنه لا يجد المدخل المناسب ليخبرها بما يريد، ثم حسم أمره وقال:

- حسنًا.. لقد ظننا أننا سنلتقي برئيس مجلس إدارة مجموعة «الأدهم» اليوم، ولكننا عوضًا عنه قابلنا نائب رئيس مجلس إدارته، أتصدقين أنها امرأة!!

ظلت صامتة تنتظر ما سيخلفه مد أمواج تردده عندما ينحسر كاشفًا عن مبتغاه، لم يطل انتظارها طويلًا إذ أتبع تردده جَذرًا أتاها متمثلًا في صوته وهو يردف في خفوت:

- تلك المرأة هي «فريدة»... «فريدة» يا «عالية».

ارتعادة شملت جسدها بأكمله فنهضت من مكانها وهي تسأله:

- «فريدة» ابنتي... ماذا تقول؟ أتلك المرأة التي تتحدث عنها هي «فريدة» ابنتي؟

أخذ ينظر إليها دون أن يحري جوابًا، فاقتربت منه وجثت على ركبتيها وهي تمسك يده وتستنطقه في رجاء قائلة:

- أجبني بالله عليك.. أهي «فريدة» حقًّا؟

تنهد وهو يجيبها:

- أجل هي «فريدة»... ابنتي وابنتك.

أسرعت تسأله في لهف:

- كيف حالها يا «وجيه»؟ أهي بخير؟ وأين كانت طوال كل تلك السنوات؟ لِمَ لم تهاتفني من هناك لآتي وأراها؟ ولِمَ لم تحضرها معك إلى هنا؟

قامت من مكانها تجذبه مستطردة:

- لنذهب إليها الآن... هيا بنا.

استوقفها بإشارة من يده وهو يقول في حزم:

- اهدئي يا «عالية»، اهدئي واجلسي بجانبي ولتستمعي إليَّ أولًا.

- سأستمع إليك ونحن في طريقنا إليها.. هيا بنا حتى لا نضيع الوقت.

في نفاد صبرٍ قال وهو يجذبها لتجلس:

- اهدئي بالله عليكِ... إن «فريدة» التي قابلتها اليوم ليست هي «فريدة» التي كنا نعرفها والتي تربت على أيدينا، لقد تغيرت كليًّا حتى وكأنها شخص آخر غيرها.
- أنا لا يهمني كل ما تقوله هذا، فأيًّا ما كان مدى تغيرها فهي ستظل ابنتي.
- بالله لا تقاطعيني ودعيني أخبركِ بكل ما لدي، أتعلمين من هو «أدهم» هذا؟ أتعرفين صلتها به؟ إن «أدهم» هذا هو «أدهم عبد العزيز محمد منصور» ألا يذكركِ اسم والده بأحدٍ ما؟

هزت له رأسها نفيًا فأكمل:

- إن «عبد العزيز محمد منصور» هو نفسه «عزيز منصور» عدوي اللدود والذي أزحته عن الساحة منذ ما يقرب من خمس سنوات، أتذكرينه؟ أتعلمين صلته بابنتنا؟ إنها زوجته... و«أدهم» هذا هو ابنهما معًا يا «عالية».

كانت تنظر إليه وهي لا تصدق ما تسمعه، أيعقل أن تفعل «فريدة» هذا؟ أتتزوج بالرجل الذي طالما عاداه والدها؟

أكمل إمطارها بسيل الحقائق وهو يقول:

- هل علمتِ الآن سبب اختفائها وعدم تمكننا من الوصول إليها طوال كل تلك السنوات؟ لقد فرت معه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تزوجا وفرا إلى هناك، لقد أجاد إخفاءها باستخدام ما لديه من علاقات، عاشت معه هناك طوال تلك السنوات وعاشرته يا «عالية»، أتصدقين ذلك؟ عاشرت عدو والدها وعدو عائلتها بالكامل، أتدركين أنهما قد دبرا لتلك العودة طوال وجودهما هناك، خططا معًا للإيقاع بي وجعلي أحلم بذلك الدمج الذي عرضه عليَّ الدكتور «رأفت»... أتذكرينه هو الآخر! إنه ذلك المحامي الذي كان يعمل لديه «أكرم»، والذي جعلته يقوم بطرده فيما مضى لأسُّد على ذلك الحقير الذي أتتني به قديمًا كل سبل الحياة.

صمت لهنيهة ثم تنهد في مرارة وهو يقول:

- عجبًا لكِ يا «فريدة»! وكأنكِ لا تتعثرين في طريقكِ إلا بالحقراء وحدهم؟

ربتت هي على يده فأكمل سائلًا إياها:

- أتذكرين أني قد استقدمت «رأفت» هذا وقتها وقلدته منصبًا كبيرًا في مجموعة شركاتي رئيسًا لإحدى فرق المحامين لدينا لأضمن ولاءه لي، ثم نسيت كل هذا؟ ولكن «فريدة» لم تنسَ ما حدث قط، استقطبته تجاهها وأوعزت إليه ليقنعني بأهمية ذلك الاندماج بيننا، جعلني أتوق إلى هذا الدمج، أحلم به، أصدق بأنه طوق نجاتي في سوق العمل، وفي واقع الأمر ما هو إلا طوق أعطونني إياه وجعلوني أضعه حول رقبتي بكامل إرادتي الحرة، ثم أحكموا إغلاقه؛ فأصبح لا مناص لي منهم. أتدركين الآن لِمَ أخبرتكِ بأنها ليست ابنتنا التي ربيناها قديمًا؟

سالت دموعها غزيرة على وجنتيها وهي تهز رأسها في تفهمٍ بينما هو يكمل:

- لقد أصروا على نقل حيازة ٥٢٪ من جملة أسهم المجموعة إليهم لينفردوا وحدهم بالقرارات ويحكموا تكبيلي، أتصدقين أن كل ذلك لم يؤلمني بقدر ألمي بذلك اليقين الذي يخبرني بسبب عودتها الحقيقي.

صمت قليلًا ثم أردف في مرارة:

- لقد عادت بعد ثلاث سنواتٍ لتنتقم منا جميعًا... ومني أنا على وجه الخصوص.

الفصل الثالث عشر

شهرٌ مضى على عودة «فريدة»، ثلاثون يومًا كاملة بحسابتنا الأرضية... غير أنهم مروا وكأنهم ثلاثون عامًا على كل المحيطين بها من العائلة. شهرٌ كاملٌ أيامه ثقيلة للغاية، لحظاته موجعات، تُطبق بأياديها الحديدية على أنفاسهم؛ فلا يسعهم التصديق أن «فريدة» التي انتظروا عودتها وهم يتقلبون على جمار القلق سينكرهم قلبها وتبرأ منهم روحها هكذا، حتى إن نبرات صوتها غدت تتنصل من انتسابها إليهم. لا أحد يصدق أن «فريدة» الوديعة الحانية قد انقلب حالها وأصبحت تلك المخلوقة التي تحيا بينهم الآن، تعامل الجميع بتعالٍ وإحساسٍ مفرطٍ بالذات، لم تستثنِ أحدًا قط من

تلك المعاملة، حتى العمال وصغار موظفي المجموعة كانت تعاملهم بغطرسة لم تعرف سبيلها إليها يومًا.

أما عن تعاملاتها مع العائلة فقد حصرت علاقتها بوالدها وشقيقها في محيط العمل فقط، تعاملهما برسميةٍ شديدةٍ، هما بالنسبة إليها منذ أن خطت بقدميها في محيط المجموعة... «وجيه» بك، والأستاذ «باسل» كما اعتادت أن تطلق عليهما منذ عودتها، لم تستجب لمحاولات أي منهما في استمالتها تجاههما، كانت تقابل كل ما يحاولان فعله للاقتراب منها بالابتعاد والنفور، دعاها والدها في بداية قدومها لتقيم معهم في القصر هي و«أدهم» فأبت في شمم، طلب منها أن تسمح لهم بزيارتها؛ حيث تقيم في فيلا خاصة بها بحي «التجمع الخامس» فرفضت، أخبرها بأن «عالية» تكاد تموت كل يومٍ شوقًا إليها وبأن شقيقتيها ترغبان في رؤيتها فلم يجد منها إلا صدًّا وإعراضًا، رفضت رفضًا قاطعًا أن تسمح لأي منهم بمقابلتها أو برؤية «أدهم» ولدها.

كانت تتلذذ بمشاهدة سحب الخيبة وهي ترتسم فوق صفحة وجه والدها عندما تخبره بأن وقتها لا يسمح بمثل تلك الزيارات، وبأنه من حقها وحدها أن تقرر من هم

المسموح لهم برؤية ولدها من «عزيز منصور» ومن هم المنبوذون من وجهة نظرها.

ظلت ثابتة تعتلي جبال الصمود حتى فاجأتها «عالية» بزيارتها صباحًا بعد مرور ذاك الشهر في فيلتها حيث تقيم. كانت تستعد للذهاب إلى العمل حين أخبرتها الخادمة بأن هناك إحدى السيدات التي ترغب في مقابلتها، استغرقها الدهشة للحظات... فمن تلك التي ستزورها في الصباح الباكر هكذا يا ترى؟ طلبت من الخادمة أن تجعلها تنتظر في بهو الفيلا حتى تأتي إليها، أكملت ارتداء ملابسها وذهنها مشوشٌ بتلك الغريبة القادمة مبكرًا هكذا. صففت شعرها وحملت حقيبة يدها واتجهت صوب الدرج وأنهته في لحظات، لم تكد تخطو بقدميها سوى خطوة واحدة نحو البهو حتى التفتت تلك الغريبة إليها، لم تكن تحتاج لأن تستدير إليها تلك المرأة في واقع الأمر، فلقد عرفتها منذ الوهلة الأولى، من قبل حتى أن تلتفت، إنها خالتها.

احتبست أنفاسها بالداخل تأبى المغادرة، بينما توقف الزمن من حولها للحظات، أو ربما هو ما زال يستكمل إيقاع دوراته ولكن ببطءٍ شديدٍ، نعم... هذا هو ما يحدث

الآن، وإلا فلِـمَ تُراهـا خالتهـا تتقـدم نحوهـا بتلـك اللهفـة المتأنيـة، إن سـحب عينيهـا تتكاثـف في تمهـل... وابتسـامتها تـشرق بتـوانٍ، لقـد اقتربـت منهـا كثـيرًا حـد الالتصـاق، هـا هـي ترفـع يديهـا نحوهـا ثـم في لمـح البـصر تطلـق الـصراح لعينيهـا لتمطـر في سـخاء، وكأن تلـك الأمطـار كانـت هـي إشـارة البـدء للزمـن لأن يعـود أدراجـه ويضبـط سـير إيقاعـه مـن جديـد، اجتذبتهـا خالتهـا نحـو أحضانهـا وهـي تـردد اسـمها مـن خلـف نهنهـات دموعهـا في تكـرارٍ لا يمـل، مـا بـال قلبهـا يـدق هكـذا في اضطـراب؟ إن خالتهـا مـا زالـت تـردد اسـمها وكأنهـا تتنفسـه، ثـم تحتـوي رأسـها بـين يديهـا وتنظـر إلى وجههـا في اشـتياق... ينتفـض قلـب «فريـدة» بالداخـل... تضطـرب نبضاتـه... ترتعـش شـفتها السـفلى... يـزداد إيقـاع وجيـب قلبهـا، لم تـدر إلا وهـي تحتضـن خالتهـا بينـما تشـهق أنفاسـها في لهـف، أتراهـا كانـت تنتظـر هـذا الاحتضـان طـوال كل لحظـات فرارهـا! يبـدو لهـا ذلـك... نعـم هـي أكيـدة مـن هـذا الأمـر الآن، زفـرةٌ حـارةٌ أطلقتهـا مـن قلـب يقينهـا ثـم همسـت في خفـوت:

- اشتقت إليكِ!

زاد قولها هذا من سيلان دموع خالتها... استمر صراع شوقيهما لدقائق قبل أن تبتعد «عالية» بينما تمتزج عبراتها بضحكاتها وهي تسألها عن «أدهم»؛ لتبتسم لها «فريدة» وتمسك بإحدى يديها وتتجه صوب الأعلى وهي تقول:

- سترينه الآن، إنه لا يزال نائمًا ولكن لا بأس، سأوقظه من أجلكِ.

تغلق خالتها عينيها في فرحٍ لتسمح لبعض العبرات المتبقية بأن تنطلق للخارج وهي تقول:

- ليت «وجيه» كان معي الآن، لا تعلمين كم يتوق لرؤيته حبيبتي!

- لا...

أخرستها صرخة «فريدة» وهي تعلن رفضها لهذا القول؛ فارتج عليها الأمر للحظاتٍ حتى سمعتها تكمل:

- إلا هذا يا خَالَتِي، إنه لن يراه أبدًا ما حييت.

- ولكنه جده يا حبيبتي..

باستنكارٍ قالت:

- جده! أَشَعَرَ الآن فقط بأنه أصبح جدًّا وأن من حقه أن يطالب برؤية حفيده؟ هل نسي ما فعله معي

قديمًا عندما حرمني من رؤية طفلي وانتزعه من بين أحشائي بوحشيةٍ وأنانية؟ لقد أسقط بفعلته هذه أي حقوق كانت له عندي، منذ أربعة أعوامٍ مضت عندما اغتال طفلي وزوجي.. أما زلتِ تذكرين أم نسيتِ! لتخبريه بأنه لم يكن جدًّا لـ «أدهم» في يومٍ ما، ولن يكون... أتعلمين لِمَ؟ لأنه ليس أبي وأنا لست ابنته، هذا هو فصل القول لدي.

نظرت إليها «عالية» للحظاتٍ قبل أن تقول:

- حسنًا يا «فريدة»... لتهدئي الآن ولتتركي الزمن ليعالج كل تلك الجراح التي تملأ قلبكِ يا ابنتي.

قاطعتها «فريدة» قائلة:

- بالمناسبة... ما ينطبق على «وجيه» بك ينطبق على ابنه كذلك.

خفضت «عالية» رأسها وهي تتساءل في صوتٍ خفيضٍ:

- وماذا عن شقيقتيكِ؟ ألن تسمحي لهما أيضًا برؤيتكِ ورؤية «أدهم»؟

صمتت «فريدة» ولم تجب، فأحست خالتها أنها أصابت هدفًا داخل مرمى قلب ابنة شقيقتها، فأسرعت لتكمل في لين:

- إنهما لا ذنب لهما يا ابنتي فيما حدث معكِ قديمًا، صدقيني.. إن كل منا كانت ترغب في القدوم إليكِ منذ عدتِ، ولكن ما كان يمنعنا من القدوم إليكِ هو استمراركِ في التهرب من الرد على اتصالاتنا، وتشديدات «وجيه» علينا بألا نأتي كي لا نغضبكِ، كان يأمل في أن تهدئي بمرور الوقت، ولكن قلبي لم يتحمل الانتظار لأكثر من ذلك.

ابتسمت لها «فريدة» وهي تقول:

- حسنًا يا خَالَتِي، لنصعد لرؤية «أدهم» الآن، ولنرجئ حديثنا في هذا الأمر لوقتٍ لاحقٍ، هذا إن ترك لنا «أدهم» مجالًا للتحدث، سترين كيف سيملأ وقتنا بحركاته وابتساماته ولهوه.

في حنانٍ تساءلت «عالية»:

- كم يبلغ من العمر الآن؟

- عامٌ ونصف العام..

- فليحفظه الله... وليحفظ «غرام» ابنة «دينا» هي الأخرى.

في دهش تساءلت «فريدة»:

- غرام! ما هذا الاسم النادر؟
- لقد اختاره لها «هاشم» منذ أن علم بأن شقيقتكِ ستلد فتاة. أخبرنا بأنه طالما حلم بأن تكون أول مولودة له أنثى، إنه يدللها قائلًا «غرامي»... حتى إن جميعنا أصبح يناديها بهذا الاسم، وأحيانًا نشاكسه متسائلين عنها قائلين كيف حال «غرامك» يا «هاشم»؟

ابتسمت «فريدة» في سعادةٍ ظاهرة وهي تسأل:

- وكم تبلغ «غرامه» من العمر يا ترى؟
- ستة أشهر فقط... ما رأيكِ يا حبيبتي في أن نتصل بشقيقتيكِ الآن لتأتيا ونتناول إفطارنا سويًّا، ستكون فرصة رائعة لترين «غرام»، إنها غاية في الجمال.

ربتت «فريدة» على يدها وهي تقول في صوتٍ خفيضٍ:

- لندع رؤية «غرام» جانبًا الآن، أعدكِ بأني سأفكر في التقائنا معًا عما قريب...لنصعد لنوقظ «أدهم» الآن.

هـزت لهـا «عاليـة» رأسـها في تفهـمٍ، وابتسـمت في حنـان وهـي تنظـر صـوب الأعـلى في أمـلٍ يتقافـز هنـاك بـين عينيهـا، بينـما عينـا «فريـدة» تشـوبهما ريـاح القلـق ممـا سيسـفر عنـه قـادم الأيـام.

***

طرقـاتٌ خافتـةٌ أتتهـا عـلى بـاب المكتـب ثـم انفتـح البـاب قليـلًا قبـل أن تـأذن للطـارق بالدخـول، ليطـل وجـه «سـلمى» باسـمًا مـن فرجتـه...

نهضـت «فريـدة» مـن خلـف مكتبهـا وهـي تبتسـم لهـا وأقبلـت عليهـا تحتضنهـا وهـي تقـول:

- مرحبًا بشقيقتي الصغرى.

لترد عليها «سلمى» قائلة في مشاكسة:

- صغـرى... صغـرى... أنـا لم أعـد صغـيرة بعـد، ألـن تكفـوا عـن منـاداتي بذلـك وتنتبهـوا قليـلًا لأني أصبحـت عـلى وشـك التخـرج مـن الجامعـة، إن هـو إلا شـهر ونصـف الشـهر فقـط وأنـال شـهادتي بتفـوقٍ لأصبـح أسـتاذة جامعيـة مـلء السـمع والأبصـار.

انتبهت لارتجافة شقيقتها لدى سماعها آخر مقطعٍ من عبارتها فأسرعت تقول في توددٍ وهي تلكزها في كتفها:

- ألا ترغبين في رؤية شقيقتكِ الصغرى وهي ترتقي السلم الوظيفي لأساتذة الجامعة لتجمع بين الثراء والوجاهة والوضع الاجتماعي المرموق؟

صمتت لهنيهةٍ وهي تبتسم في مكرٍ محببٍ وهي تنظر في عيني شقيقتها وتردف:

- أتعلمين أنه وقتها لن يتمكن أي منكم من رؤيتي إلا بعد تحديد موعدٍ سابقٍ؟

تمكنت أخيرًا من انتزاع ابتسامةٍ واسعةٍ من وجه شقيقتها، ثم أسرعت بالجلوس أمام المكتب وهي تسألها، بينما تعبث بيدها في بعض الأوراق والأقلام الموجودة فوق سطحه:

- أخبريني الآن، كيف حال شقيقتي وابن شقيقتي الوسطى؟

جلست «فريدة» خلف مكتبها وهي تقول في مرح:

- ألن تكفي أبدًا عن العبث بالأشياء المهمة؟ أوَ تتحدثين عن قرب تخرجكِ من الجامعة! أي شهادة تلك التي ستمنح لأمثالكِ؟

ضحكت كلتاهما في جذلٍ بينما «سلمى» تعاود سؤالها من جديد عن أحوالها هي و«أدهم»، لتجيبها «فريدة»:

- نحن بخير حالٍ والحمد لله.
- ألم يأن الوقت بعد ليلين ذلك الصخر الذي احتل أدراجه بأودية عقلكِ وتسمحي لأبي و«باسل» برؤية «أدهم»؟

أبعدت «فريدة» وجهها عنها في ضيقٍ ولم تعقب، فأكملت «سلمى» كلامها قائلة:

- لِمَ كل هذا يا «فريدة»؟ وما الذي تنتظرين حدوثه أكثر مما جرى بالفعل، لقد عدتِ إلينا من جديدٍ بعد غيابٍ استمر لثلاثة أعوامٍ كاملة، كنا ننتظر قدومكِ خلالها على أحر من الجمر، وعندما رجعت من غيبتكِ تلك فوجئنا بكونكِ زوجة لأحد أعداء والدنا وأمًّا لابنٍ منه كذلك، لم يعر أي منا لهذا الأمر اهتمامًا، كل ما همنا فقط هو رجوعكِ إلينا من جديد، فاجئتِنا

بتغيركِ الكامل... رفضتِ رؤية جميعنا... لم تتمكن أي منا من الاتصال بكِ لأنكِ سددتِ كل سبل الوصال بيننا، كنا نهاب لقاءكِ قدر رغبتنا به، من كثرة ما حدثنا «باسل» ووالدي عما أصبحت عليه شخصيتكِ الجديدة، حتى كسرت خَالَتِي حاجز الرهبةِ وذهبت إليكِ بعد شهرٍ تامٍ من عودتك، واستغرقكِ الأمر شهرين تاليين لتسمحي لي أنا و«دينا» برؤيتك بعدهما، وها قد مر شهر آخر على ذلك حبيبتي، فماذا تنتظرين إذًا؟ أخبريني... أتعلمين معنى أن يظل أبي أربعة أشهرٍ كاملة وهو يراكِ خلالها كل يومٍ ولا يستطيع فيها الإقدام على احتضانكِ ولو لمرةٍ واحدةٍ؟ يعجز عن مناداتك بابنتي لأنكِ تردعينه عن قول هذا، يمني نفسه برؤية حفيده الأكبر وأنتِ تحولين دونه ودون تحقيق تلك الأمنية. أنا ما جئتكِ اليوم لأنبش في رفات الماضي، وأعلم علم اليقين كل ما مررتِ به وأجزل في الانتهاك من حرمة جراحكِ، إنما كل ما أطلبه منكِ فقط هو العفو... لا تنظري إليَّ هكذا باستنكار، أنتِ لم تخطئي سماع الكلمة، نعم ما أرجوه منكِ هو العفو،

لقد أصبحتِ أمًّا الآن وتدركين عمق ما تحويه مشاعر الوالدين نحو أبنائهما، تخيلي معي هكذا أن يتنكر لكِ «أدهم» بعدما يشب عن الطوق ويغدو رجلًا، فيوغر في الابتعاد عنكِ، ويوعز له شيطان نفسه بأن يلفظكِ خارج حدود عالمه، هل تستطيعين وقتها تحمل هذا الشعور؟

بالله لا تحاولي مقاطعتي ولتتركيني أنهي ما أريد قوله، كلنا ندرك فداحة ما ارتكبه والدي منذ زمنٍ في حقكِ، ولكنه لم يفعل ما فعل إلا لاعتقاده بأن ذلك لمصلحتكِ الخاصة، حتى وإن كان ظنه هذا خاطئًا، فأنتِ مأمورة من الله بحسن معاملته، تذكري قوله سبحانه وتعالى حين قال: بسم الله الرحمن الرحيم «وإن جَاهدَاكَ على أن تُشرِكَ بى ما ليسَ لكَ به علمٌ فلا تُطعهُما وَصَاحبهُما فى الدنيا معروفًا واتبع سبيلَ من أنابَ إلىَّ ثم إلىَّ مرجعكم فأُنبِئُكم بما كنتم تعملون»[1] صدق الله العظيم.

لتمنحيه فقط قليلًا من المصاحبة التي أمركِ بها الله، أنا أعلم أنكِ ما زلتِ تحتفظين بنسخة «فريدة» القديمة

(١) سورة لقمان.

بداخلكِ، وإن كانت تلك النسخة الجديدة خاصتكِ تبغي انتقامًا لما حدث معكِ منذ سنواتٍ فأظنها قد حققته وانتهى الأمر، ألا ترين أن أكثر من نصف أسهم المجموعة أصبح يؤول إليكِ؟ وأنكِ أصبحتِ صاحبة الكلمة العليا هنا... صحيحٌ أن اسم «الأسيوطي» يرتفع بارتفاع المجموعة الجديدة بعد الدمج، وأن وضع أبي المالي أصبح مستقرًّا وفي ازديادٍ ونمو، ولكن في النهاية كلنا نعلم أنه لن يستطيع الانفراد بإصدار الأوامر والقرارات وحده منذ حدث ذلك الاندماج، أفلا يكفيكِ كل هذا؟ عديني بأن تفكري في الأمر بهدوءٍ ورويةٍ، وأن تضعي صوب ناظريكِ أننا أسرة واحدة لا غنى لأحد منا عن الآخر.

كانت «فريدة» تستمع بينما تقاذفها أمواج عدة، ترتفع أعاصير جراحاتها لأعلى فتجذب معها قمة الأمواج نحو عنان سماوات الانتقام، توعز إليها بالمضي قدمًا فيما انتوته وحلمت بتحقيقه طوال سنوات الفراق الماضية، ثم على حين غرةٍ تحتويها كلمات شقيقتها فتطبطب جراحاتها وتهدأ من روعة انفعالاتها وتسحبها برفقٍ نحو الشاطئ، فتغدو

أعاصيرها نسيمًا يهدهد قلبها بأندائه ويمسد روحها بشذاه. كانت في صراعٍ داخلي، لا تدري أتنتصر لذاك الصوت الذي تعاظم صداه بداخلها ووعدتها شفار نبراته بالاقتصاص مما حدث معها؟ أم تنتصر لسجيتها التي خلقت عليها والتي جاءتها «سلمى» اليوم لتذكرها بها وتعيد انتشالها من جديد من ذلك الجب الذي أُلْقِيَتْ بين غياباته منذ أكثر من أربعة أعوام؟

تنفست بعمقٍ وهزت رأسها غير عازمةٍ على شيء، ثم قالت محاولة تغيير دفة الحديث إلى اتجاهٍ آخر:

- أيعقل أني لم أطلب لكِ شيئًا لتشربيه حتى الآن؟

ابتسمت «سلمى» في قنوطٍ وأدركت ما تبتغيه شقيقتها، ولكنها وسط هذا القنوط لمحت بارقة أملٍ تراءت لها في عيني «فريدة»؛ فانتهزت تلك الفرصة وأسرعت لتقول:

- قبل أن تطلبي لي أي شيءٍ أريدكِ أن تعلمي بأني كنتُ مخطئةً عندما ظننتُ أن «دينا» كانت تعلم بحقيقة مشاعركِ تجاه «هاشم» قديمًا.

قاطعتها «فريدة» بإشارة من يدها وهي تردف:

- لا داعي لأن نفتح هذا الموضوع يا «سلمى»... إنني في الأصل لم أقنع بما أخبرتني به من قبل، لأني أدرك قصر نظرتكِ في الحياة، أنتِ اعتدتِ دائمًا خلط الأمور ببعضها، وإلباسها ثوبًا فضفاضًا لا يناسبها، لطالما كنتِ تضخمين الأحداث لتأخذ حيزًا أكبر مما هي عليه في واقع الأمر، كما أن خَالَتِي أخبرتني بتلك المواجهة التي حدثت بين ثلاثتكم. والآن... هل تتنازل أستاذتنا الجامعية القادمة بتناول مشروبٍ ما مع شقيقتها الوسطى؟

ابتسمت لها «سلمى» وهزت رأسها موافقة بينما يد «فريدة» تضغط زر استدعاء عامل الكافيتريا، دقيقة مرت ثم سمعتا طرقاتٍ على الباب، دلف على إثرها أحدهم بعد أن أذنت له «فريدة» بالدخول، وأسرع بالقول:

- السلام عليكما...

ثم نظر إلى «فريدة» وأردف:

- هل تريدين شيئًا يا ابنتي؟

نظرت له «سلمى» وهي تردد في استنكار:

- ابنتك!

بحرجٍ قال:

- معذرة.. أقصد يا سيدتي..

بلا مبالاة توجهت «فريدة» بنظرها صوب «سلمى» تسألها عما تشربه، ثم أصدرت له الأمر بأن يسرع بإحضار ما طلبته، أسرع بالخروج مرتبكًا وصفق الباب خلفه، فنظرت «سلمى» نحو شقيقتها وهي تقول في ضيق:

- كيف تسمحين له مناداتك بابنتي؟

- لا عليكِ من ذلك، إنه رجلٌ مسنٌّ لا يدري ماذا يقول.

- أيًّا ما كان الأمر فلا بد وأن تكوني حاسمة أكثر من ذلك مع العمال ها هنا، ولا تسمحي لأي منهم بالتبسط معكِ هكذا.

- أتعلمين بأنكِ على حق؟ يجب أن أكون أكثر حزمًا مع مثل هؤلاء.

صمتت قليلًا ثم أردفت في عجب:

- حقًّا... كيف سولت له نفسه أن يناديني بابنتي؟ يا لهؤلاء العامة! إن أنتِ تبسطتِ معهم قليلًا، فكأنكِ أرخيت لهم الحبل على غاربه.

نظرت كلتاهما للأخرى وابتسمتا... كانتا راضيتين تمامًا عن وجهة نظرهما في الحياة، رضاءٌ تفوح دواخله بعبق «الأسيوطي» المميز شذاه.

الفصل الرابع عشر

إنها الثانية والنصف بعد منتصف الليل ولا تزال «فريدة» تتقلب فوق فراشها تحاول استجداء قوافل النوم القدوم دون جدوى، أحداث اليوم السابق تتصارع لحظاتها بداخلها منذ ما يربو على الساعتين دون نيةٍ واضحةٍ من قِبلها للرحيل أو الكف عن العراك. مشهدٌ هزليٌّ يتكرر أمام ناظريها كل ليلة، يتم أداؤه بحرفيةٍ وإصرارٍ دون كلل، نفس الأبطال يعتلون خشبة مسرح الحكاية، نفس المكان، نفس الديكورات، وغالبًا نفس الأحداث، اللهم إلا بعض التغييرات الطفيفة التي يمليها عليهم الموقف، أو ربما كانت تلك التغييرات تحدث من باب كسر الملل لا أكثر؛ كي لا يزهد المشاهدون هذا العرض ويسارعوا بمغادرة المكان.

مسرحٌ صغيرٌ تم بناؤه هنا داخلها... تستحضر من خلاله كل أحداث يومها التي مرت عليها وتقوم بتفنيدها. ها هو «باسل» يظهر أمامها على مرآة الأحداث، يقتحم عليها المكتب دونما استئذان متسائلًا في هياج عن صفقة المستلزمات الطبية الأخيرة بينما هي لا توليه اهتمامًا وتستمر في مطالعة حاسوبها النقال في تركيز، يرتفع صوته أكثر طالبًا إجابة شافية عما يحدث في المجموعة دون علمه؛ فترفع نظرها أخيرًا إليه وتتساءل في هدوء غلفت جوانبه برقائقٍ ثلجيةٍ:

- ما الذي تريد معرفته بالضبط؟

يستفزه ذلك البرود الذي قابلت به لفح نبراته فيقترب برأسه من محيطها وهو يقول:

- ألم أخبركِ برفضي لإتمام تلك الصفقة منذ عشرة أيام على وجه الدقة؟

تستمر في النظر إليه بذات الهدوء ثم تستعير كتلةً جليديةً تدرب صوتها كثيرًا على احتواء صقيعها بين جنباته؛ فتجيبه:

- لا أذكر أنك حقًّا قد رفضت تلك الصفقة.

- بـل أنـتِ تذكريـن، أعلـم تمـام العلـم أنـكِ تذكريـن رفـضي لهـا.

تنظر نحوه بطرف عينها قائلة:

- ربما... ماذا تريد الآن؟

زادت نيران غضبه اتقادًا وهو يصرخ بها:

- أريـد معرفـة حقيقـة ذلـك البريـد الإلكـتروني الـذي وردنـا منـذ قليـل تخبرنـا فيـه شركـة «New World» للمستلزمات الطبية بموافقتها عـلى الموعـد الـذي حددناه لهـم لإبـرام عقـد الاتفـاق.

أطلقـت صفـيرًا خافتًـا مـن بـين شـفتيها ونهضـت مـن خلـف المكتـب وهـي تقـول:

- مرحـى! طالمـا أنهـم قـد أرسـلوا يعلنوننـا بموافقتهـم عـلى الموعـد فهـذا يعنـي أنهـم قـد وافقـوا عـلى شروطنـا التـي أرسـلناها كافـة.

- إذًا فأنـتِ قـد ألقيـتِ برأيـي حـول عـدم جـدوى تلـك الصفقـة عـرض الحائـط، وأرسـلتِ تخبرينهـم بالموافقـة.

- وهل أنا ما زلتُ طفلة غرة بعد لأرسل لهم ما مفاده ذلك؟ بالطبع لا... لقد وضعتُ ثلاثة شروطٍ ضرورية لإتمامنا تلك الصفقة، شروط من شأنها أن تعود علينا بأرباحٍ هائلةٍ لتغطي بعائداتها المادية على تلك الجوانب التي جعلتك تعترض على إتمامها من البداية، وأخبرتهم أنه في حال أن وافقوا عليها فإن الموعد المناسب لنا للتوقيع على الاتفاق هو الرابع من ديسمبر القادم: أي بعد أسبوعين كاملين من الآن، وها هم قد وافقوا على شروطنا جميعها.
- يبدو أنكِ قد نسيتِ كوننا شركاء في إدارة تلك المجوعة.

بتحدٍ سافرٍ قالت:

- يبدو أنك أنت من نسيت أنني أمتلك ٥٢٪ من جملة الأسهم، وأنه يحق لي الانفراد باتخاذ القرار، وأنني إن كنتُ أجتمع بك أو بوالدك أو بباقي أعضاء مجلس إدارتكم فذاك من باب اللياقة فقط لا غير، ولكن إن كان تصرفي هذا سيجعلك تتناسى أحقيتي في اتخاذ القرارات هنا، فسأعدل عن هذا التصرف بدءًا من الآن.

هــز رأســه في قنــوطٍ ثــم اقــترب منهــا قليــلًا، وفي رفــقٍ أمســك كتفيهــا بكلتــا يديــه فلــم تجفــل، نظــر في عينيهــا وهــو يقــول في صــوتٍ حنــونٍ خافــت:

- بغـض النظـر عـن كل مـا قلتِـه الآن، فأنـا أريـدكِ أن تعـرفي شـيئًا واحـدًا، وهـو أنـه حـين نتعامـل معـكِ هنـا سـواء أنا أو أبي أو خـالي «سـعيد» فنحـن لا نعاملـكِ عـلى اعتبـار أنكِ الطـرف الأقـوى في هـذا الاتفـاق، إنـما نعاملـكِ بصفتـكِ «فريـدة الأسـيوطي» لا «فريـدة منصـور» كـما أصبـح يحلـو لـكِ أن تطلقـي عـلى نفسـكِ... أنـا لم أنـس للحظـةٍ واحـدةٍ منـذ عودتـكِ وحتـى مـن قبـل أن تعـودي أننـا شـقيقان، وأنـكِ كنـتِ ومـا زلـتِ الأقـرب إلى نفـسي، عـلى الرغـم مـن اسـتمراركِ في صـد تقـربي منـكِ، فأنـا مـا زلـتُ أذكـر أنـكِ «فريـدة» شـقيقتي وحبيبتـي. ولكـن فيـما يبـدو أنـكِ أنـتِ مـن نسـيتِ ذلـك.

اقــترب منهــا ليطبــع قبلــة حانيــة فــوق جبينهــا، ثــم تركهــا مغــادرًا... ظلــت مكانهــا للحظــاتٍ عالقــة بنظــرة عينيــه وهــو يحدثهــا، تلكــما العينــان التــي اعتــادت مطالعــة روحــه مــن خلالهــما قديــمًا، والتــي كانــت لا تحتمــل رؤيــة نظــرات الحــيرة أو القلــق

تتقافز عبر نافذتها، فكانت تسرع باحتضانه وقتها لتبثه الطمأنينة، عيناه اللتان كانتا تخبرانها منذ زمنٍ بعيدٍ بكل ما يبتغي قوله ولكنه يعرض خوفًا أو ترددًا، كانت تضعف أمام نظرة الاحتواء بعينيه قديمًا، ويبدو أن عينيه لا تزالان تصيبان قلبها بذات الداء.

خرج «باسل» من مسرح الأحداث متزامنًا مع تلك التنهيدة التي خرجت من صدرها، أغلقت عينيها ونهضت وهي تضيء أنوار الحجرة، أسرعت نحو حقيبتها وأخرجت علبة سجائرها وانتزعت منها واحدة وأشعلتها، عادةٌ مقيتةٌ أخرى اكتسبتها منذ رجعت إلى مصر لتضاف إلى جملة العادات السيئة التي أحكمت وثاقها حولها كي لا تنفلت منها فتعود إلى طبيعتها الأولى. نفثت سحب الدخان في ضجرٍ واقتربت من المرآة تطالع وجهها في دهش، وكأنها لا تعرف تلك الأخرى التي تطل عليها من خلف لجينها، هذه الـ «فريدة» التي تنظر إليها الآن من الجهة المقابلة... ما بال ملامحها باهتة هكذا؟ ونظراتها ما لها فاترات، وكأنها في رحلة اعتلائها لجبل القمة الذي حاربت طويلًا لترتقيه قد تعثرت روحها بأحجار الذبول فانطفأت، أو أن سطوة التشفي التي

تملكتها قد ألقتها وسط براثن تيهٍ لا قِبل لها باجتياز سراديبه المهلكة؛ فظلت عالقةً هناك تتسكع وسط أزقة الذكريات، تحيطها نيرانٌ كلما أوشكت على الانطفاء تعيد أنفاسها الثكلى إضرام جذوتها من جديد، فتتأجج شهوتها اشتعالًا؟! روحها مترعة بالجراح، مثخنة بتساؤلاتٍ تتخبط بين جدرانها ليل نهار، فيحدث ارتطامها دويًّا هائلًا ينتفض على إثره كيانها كله... تساؤلات ما لبثت تتردد بداخلها على مدار الساعة، ها هي التساؤلات تنقض عليها من جديد، تصرخ بها قائلة... (إلى متى يا «فريدة» ستستمرين في تحقيق انتقامكِ هذا؟ وممن تسعين إلى الانتقام من الأساس؟ أمن أهلكِ وذويكِ)؟ صمَّت أذنيها كي تحجب تلك التساؤلات عنها، ولكن تساؤلاتها تلك كانت تنبع من داخلها، أهلكها الصوت فاستسلمت لصداه، وجدت نفسها تتساءل خلف الصوت... أحقًّا كان تصرف والدها وشقيقها لمصلحتها من وجهة نظرهم كما تقول خالتها؟ أم أنهما قد فعلا ما فعلاه ليحفظا لاسم «الأسيوطي» بريقه؟ تساؤلات جديدة تأخذ مكانها بجوار سابقيها، إنها لا تقوى على الاستمرار في أداء هذه التمثيلية المقبضة التي تحاول إتقان دورها فيها، لا تستطيع التقدم في

درب الانتقام الذي انتهجته نفسها الجديدة، تريد لقلبها أن يرسو على ضفة لقاء تجمعها بذاتها القديمة، ترغب في عناق الحلم وفي مطاردة سحب الأمنيات كما اعتادت أن تفعل، ولكن شيطانها يأبى ذلك.

أوَ لن ينتهي هذا الصراع ذات يوم! لقد أصبحت تمارس الوحدة بحرفيةٍ حتى أنها تناست كونها زوجة، تركت زوجها في بلادٍ بعيدةٍ وأتت لتحقيق ما أملاه عليها شيطان القصاص، أرادت الثأر منهم جميعًا وتناست وجود «عزيز»... ذلك الملاك الذي أرسله الله إليها في ثوب إنسان رق لها قلبه، «عزيز» الذي أحبها لذاتها وما همه يومًا كونها ابنة الرجل الذي دمر عليه حياته المهنية هنا في مصر، «عزيز» الذي أراد انتشالها من يم التردي الذي كانت تقبع بظلماته، «عزيز» الذي هيأ لها حياة جديدة براقة هناك في الولايات.

تذكرت رقته، حنانه، نظرات عينيه، نبرات صوته الحانيات، كل تفاصيل تكوينه التي تعشقها، تفهمه لآلامها واحتواءه لها، ميل قلبها إليه رغمًا عنها، ذلك الميل الذي حيرها كثيرًا في بداية علاقتهما، إذ كيف يميل قلبها لشخصٍ آخر بعد «أكرم»، وهي التي ظنت يومًا أن «أكرم» هو حبها الحقيقي، وأن تعلقها بـ

«هاشم» لم يكن سوى تعلق طفلة بدأت في اجتياز أعتاب المراهقة بأول شخصٍ يتواجد في محيطها، فأتى «عزيز» ليدحض ظنونها جميعًا!

تزوجته وسافرت معه هربًا من كل كان يحيطها في مصر، ولكنها اكتشفت أن هروبها هذا كان بداية ارتيادها لمدن أحلامه الحانية، أحلامه التي ما تخيلت تحقيقها يومًا فوق أرض الواقع، بدأت في اكتشاف عالمه الخاص بوجل، وهو مستمر في اجتذابها إليه، يحيطها بكل هذا الحب الذي ما جال ببالها قط أنه قد يتواجد بداخل أحدهم. ظنته في البداية قد تزوجها ليقتص من والدها بتلك الزيجة... فلم تمانع، وجدتها فرصة سانحة تتوافق مع ما أرادته في هذا الوقت، ولكن ويا للعجب! أنها قد اكتشفت صدق مشاعر «عزيز» تجاهها، لمست كونه يحبها بصدق غير عابئ بحقيقة انتسابها إلى والدها، كان هادئًا واثقًا من نفسه على عكس «أكرم»، معتدًّا بذاته في غير تكلف، مهيبًا دون استعلاء، جذابًا، راجح العقل، حلو الحديث دون ديماجوجية.

لم يطالبها في البداية بأكثر من كونها زوجته فقط، أرادها أن تدعه يحبها بطريقته الخاصة، وكأنه كان متيقنًا من استطاعته الفوز بقلبها، وقد كان...

عاشت معه ثلاثة أعوام ما نهرها خلالها يومًا ولا احتد عليها قط، كانت تخطئ فيعاقبها بالضم، يجتذبها بين ذراعيه باحتواء فتعانق السماوات، كان إذا ما انفلتت أعصابها وعلا صوتها قليلًا يسرع باحتضانها، وإذا ما تخاصما لأمرٍ ما كان يهاجر إليها ولا يهجرها، فكيف لا تتيه به عشقًا إذًا؟!

جعلها شريكة له في أعماله، نجحا سويًّا وارتقيا سلم رجال الأعمال معًا، كان متفهمًا لمتطلباتها دائمًا، متقبلًا لنوات انتكاساتها التي كانت تضرب ثباتها النفسي في أحايين عدة، حتى عندما أخبرته برغبتها في العودة إلى مصر كان مدركًا لما تنتوي فعله ومتفهمًا لذلك اللهف الذي خلعه عليها صوت الانتقام، لم يثر عليها، حاورها طويلًا، حاول إثناءها عما انتوته، ولكنها أبدًا لم تعدل عن قرارها، فلم يملك إلا أن يرضخ لرغبتها ويسمح لها بالعودة إلى مصر، غير أنه لم يتركها تجابه كل هذا التشتت دونه، كان دائم الاطمئنان عليها، يحدثها لأوقاتٍ طويلةٍ هاتفيًّا، يقتطع لها من ساعات يومه

الكثير، يطالبها بالعودة إليه في كل محادثة، يخبرها أنه بحاجتها وأنه يشتاق لأيامهما الخوالي، يذكرها بكرم أخلاقٍ لا يصدر إلا منه هو بأن «وجيه» هو والدها، وأن عليها ألا تسيء إليه، فتتعجب كيف له أن ينسى ما فعله والدها به ويطلب منها حُسن مصاحبته في الدنيا كما أمرنا الله؟ ولكن العجب يزول سريعًا عندما تتذكر أنه «عزيز» المكتمل، «عزيز» الرائع الذي لا يضاهيه أحد ما على وجه البسيطة.

كان شوقها يغلب انتقامها كثيرًا فتفكر في العودة وترك كل ما يحدث هنا وراء ظهرها لتلحق به هناك، ولكنها كانت تعود وتتراجع عما يمليه عليها قلبها، تسعة أشهرٍ كاملة وهي هنا بعيدة عنه، وهو هناك في أقاصي الكرة الأرضية ينتظرها لتعود إليه، ولكن... أيستطيع انتظارها لأكثر من ذلك؟ أم سيعتريه اليأس ويقنط من عودتها ويرتحل بقلبه بعيدًا عنها؟ أما كفاها هذا! إنها تريد لابنها أن ينشأ وسط والديه، وترغب أولًا في العودة إلى زوجها هناك، تتوق للحظاتهما معًا، تجد نفسها عندما تعاود التفكير في الأمر راغبة في حذف كل ما حدث خلال التسعة أشهرٍ المنصرمة لتعود إلى «عزيز» وتحيا معه فقط. نظرت إلى ساعة الحائط التي تنبؤها

بـأن الســاعة الآن هــي الثالثــة فجــرًا هنــا، إن فــرق التوقيــت بــين «القاهــرة» و«واشــنطن» حيــث يقيــم «عزيــز» هــو تســع ســاعات، لا بــد وأنهــا السادســة مســاءً هنــاك، لتتصــل بــه الآن فقــد اشــتاقت إليــه كثــيرًا. إنهــا تريــد الاســتماع إلى نــبرات صوتــه لتهــدأ ثــورة قلبهــا الداخليــة تلــك. أمســكت الهاتــف واتصلــت بــه، بضــع رنــاتٍ حتــى أتاهــا صوتــه قائــلًا في تــوق:

- «فريدة»...

يــا الله! إنهــا تعشــق حــروف اســمها وهــي تخــرج مــن بــين شــفتيه هكــذا، أجابتــه في رقــة:

- حبيبي، لقد اشتقت إليك.
- وأنا قتلني الشوق منذ زمنٍ إليكِ، متى تعودين إذًا؟
- قريبًــا جــدًّا، فــما عــادت لي طاقــة عــلى احتــمال الابتعــاد عنــك لأكثــر مــن ذلــك.
- لقد استمعتُ لذلك القول منكِ لآلاف المرات.
- أعــدك يــا حبيبــي، ســأعود قريبًــا إليــك... أقــرب ممــا يتصــور عقلــك.

- لكـم أرجـو ذلـك، ولكـن لِمَ أنـتِ مسـتيقظة حتـى الآن؟ لقـد تأخـر الوقـت كثـيرًا، هيـا اذهبـي لتنـالي قسـطًا مـن الراحـة، وتذكـري دائـمًا أني أحبـكِ كثـيرًا.
- وأنا أذوب فيك عشقًا.
- تصبحين على خيرٍ حبيبتي.
- سأصبح على خيرٍ طالما أنت معي.

***

رفـع «سـعيد» رأسـه عـن ملـف الأوراق الـذي بـين يديـه وهـو يقـول موجهًـا كلامـه إلى كل مـن «وجيـه» و«باسـل» و«فريـدة» المتواجديـن معـه في حجـرة الاجتماعـات:

- هكـذا نكـون قـد انتهينـا مـن مناقشـة جـدول أعمالنـا المزمـع منـا تنفيـذه خـلال الفـترة القادمـة، حددنـا أولوياتنـا بدقـة وعـلى رأسـها إتمـام أول مشروعـات العقـد الـذي أبرمنـاه الشـهر المنـصرم مـع شركـة «New World» للمسـتلزمات الطبيـة، ألـدى أي منكـم تسـاؤل حـول أي جزئيـة فيـم تناقشـنا فيـه الآن؟

أسرع «وجيه» قائلًا:

- بالنسبة لي فأنا راضٍ تمامًا عما توصلنا إليه في اجتماعنا هذا.

ثم نظر ناحية «فريدة» متسائلًا:

- ما رأيكِ يا «فريدة»؟ ألديكِ أي تعقيبٍ ما؟

هزت رأسها نفيًا وهي تقول:

- لا تعقيب لدي، أعتقد أننا قد غطينا جميع الجوانب التي أردنا مناقشتها إلى حدٍّ كبيرٍ.

ثم نظرت إلى «سعيد» قائلة وهي تبتسم:

- شكرًا لك يا خالي.

- لا شكر على واجب يا ابنتي، لتسمحوا لي بالانصراف الآن لمتابعة سير العمل.

هز ثلاثتهم رؤوسهم في موافقة؛ فأسرع بمغادرة الحجرة، وما إن أوصد بابها خلفه حتى قال «باسل» موجهًا كلامه إلى «فريدة»:

- أخبرتِني قبل الاجتماع بأنكِ ترغبين في التحدث إليَّ أنا وأبي في أمرٍ ما، فما هو هذا الأمر يا ترى؟

نظرت إليهما بقليلٍ من التردد قبل أن تردف:

- أنتما تعلمان أن سبب اجتماعنا هذا هو محاولة لضبط خطة سير العمل خلال الفترة القادمة التي سأتواجد فيها هناك في «واشنطن»، كنتُ أريد إعلامكما بأن تلك الفترة قد تطول لبعض الوقت، إن «عزيز» يحتاجني لمساعدته في إدارة أعمالنا هناك، ولكن لا تقلقا فإن «سالم» لديه أوامر مني بمتابعة سير العمل هنا عن كثب، كما أني أخبرته بأن لديكما الصلاحية المطلقة لاتخاذ القرارات التي تراها في صالح العمل دونما اعتراضٍ منه باعتباره الموكل بالتوقيع بدلًا عني.

صمتت قليلًا تلتقط أنفاسها ثم أكملت بينما تخفض عينيها لأسفل:

- أي قرارٍ تصدرانه سيكون بالتأكيد في صالح مجموعتنا الجديدة، وإذا ما حدث واستجد أمر طارئ فبإمكاننا وقتها التناقش حوله هاتفيًّا... كعائلةٍ واحدة.

رفعت عينيها من جديد لتطالع نظراتهما إليها، مد «وجيه» يده لتلامس أصابعها القابعة فوق مائدة الاجتماعات؛ فعدلت من وضع كفها لتتمكن من احتضان يده في دعةٍ، ثم تردف قائلة:

- أعلم أنكما تمنيتما حدوث ذلك طوال الفترة السابقة.

ليجيبها «وجيه» في حنو:

- نعم يا ابنتي، لطالما تمنينا ذلك، أردنا إخبارك بأننا عائلة واحدة في نهاية الأمر، فالحمد لله على ما وصلنا إليه الآن.

وجهت نظرها ناحية «باسل» الذي ساءلها في حنانٍ وهو يبتسم:

- لكم من الوقت ستمكثين هناك في «واشنطن» يا «فريدة»؟

- لا أدري على وجه الدقة، ولكني سأحاول التوفيق قدر استطاعتي بين وقتي هنا بينكم وبين وقتي هناك بصحبة «عزيز»، إنه يبلغكما السلام بالمناسبة، ويدعوكما لزيارتنا هناك بـ «واشنطن».

صمت «وجيه» ولم يعقب بينما اتسعت ابتسامة «باسل» وهو يقول:

- سيحدث في يومٍ ما يا حبيبتي. ولكن هل أكدتِ الحجز مع شركة الطيران؟

- لم أحدد يوم سفري بعد، ولكنه غالبًا سيكون في نهاية الأسبوع القادم بإذن الله، فأنا أنوي السفر إلى الإسكندرية أولًا لزيارة عمتي، أنا لم أرها منذ أربعة أشهرٍ كاملة، سأمكث لديها ليومين أو لثلاثة أيامٍ على الأكثر. بالمناسبة فأنا سأترك «أدهم» لديكم في القصر خلال سفري إلى الإسكندرية، إن خَالَتِي تريد أن تُشبع شوقها إليه على حد قولها.

ابتسم لها والدها وهو يقول:

- سينير حياتنا بتواجده طوال مدة مكوثه معنا.

أسرع «باسل» يقول في مداعبة:

- لتنتبه يا أبي إلى أنه سيبيت معي في الحجرة باعتباري ما زلتُ أعزب بدون زوجة، وذلك فقط كي لا نثير غيرة خَالَتِي إذا ما مكث معكما بذات الحجرة، فكرة رائعة هي... أليس كذلك؟

انطلق ثلاثتهم يضحكون في مرحٍ بينما أخذت سحب الكراهية ترقب ضحكاتهم خلسة، ترتجف تبرمًا من أصوات قهقهاتهم تلك، وتتوعدهم بالعودة ذات يومٍ قريبٍ، يممت

وجههـا بعيـدًا عنهـم، ثـم أسرعـت ولملمـت أذيـال خيباتهـا وذهبـت لتتـوارى مؤقتًـا خلـف ذلـك الجـدار الجانبـي المتواجـد منـذ القـدم داخـل أنفـس الأسـيوطية جميعهـم. فـترة هدنـةٍ قصـيرةٍ تلتقـط خلالهـا أنفاسـها، ثـم تعـود لتنقـض عليهـم بقـوة، لا بـأس... لتنتظـر إذًا لبعـض الوقـت، فهـي قـد تعلمـت هـا هنـا أن الصـبر مآلـه إلى الفـوز في نهايـة الأمـر...

فلتصبر قليلًا بعد، فما نهاية صبرها... إلا الانتصار.

الخاتمة

هـلّا أفسـحتم ليَ المجـال قليـلًا لأسـتطيع المـرور مـن بينكـم وأخـرج عـبر بوابـة هـذا القسـم؛ لأتوجـه أخـيرًا حيـث تقيـم عمتـي هنـاك في فيلتهـا الراقيـة بسـان سـتيفانو! لِمَ أنتـم متسـمرون في أماكنكـم هكـذا؟! بـالله فلتفسـحوا لي طريقًـا فأنـا أكاد أختنـق مـن تزاحمكـم هـذا، مـاذا؟ لا تريـدون ليَّ المغـادرة وترغبـون في مكوثـي معكـم لوقـتٍ إضـافي! حسـنًا حسـنًا! أنـا أعلـم جيـدًا أن صحبـة فتـاة مثـلي هـي بمثابـة حلـمٍ للدهمـاء مـن أمثالكـم، ولكنـي حقًّـا قـد أصابنـي الإعيـاء في مقتـلٍ مـن كثـرة مكوثـي معكـم بالداخـل طـوال كل هـذا الوقـت، صدقـوني أنـا أدرك تمـام الإدراك وقـع وجـود شـابة فاتنـة راقيـة بينكـم، أوقـن أنكـم لا ترغبـون في تركـي، وتـودون أكثـر مـا تـودون أن تنعمـوا بصحبتـي لأطـول

وقتٍ ممكن، ولكن ماذا أقول لكم! هكذا هي الحياة، قد تجعلكم تطالون أحد نجوم السماء السابعة بأيديكم لبعض الوقت، فقط لبعض الوقت، ثم في نهاية المطاف يعود كل شيءٍ إلى سابق عهده. صمتًا! ما هذا الذي أسمعه منكم! أهو ما أخالكم تقولونه حقًّا! أترغبون في بقائي فقط لأخبركم كيف تمكن المحامي الخاص بي من إخراجي هكذا بمنتهى اليسر؟ يا لكم من وقحين لا تستحقون كل هذا العناء الذي بذلته من أجل إخباركم بتاريخ عائلتنا العريق! ولكن أتعلمون شيئًا؟ لأني كريمة النفس حقًّا فسأروي عطش فضولكم لمعرفة أدق تفاصيل سادتكم بتلك الجزئية الأخيرة.

ما الذي تريدون معرفته الآن بالضبط؟ كيف تمكن «فؤاد الألفي» من إخراجي هكذا سريعًا بمجرد وصوله على الرغم من ذلك الحادث الذي صدمتُ فيه ذاك الفتى وتم نقله على إثره إلى المستشفى؟ وعلى الرغم أيضًا من عدم امتلاكي لرخصتيّ القيادة والسيارة ولا لبطاقة تحقيق الشخصية وقت وقوع الحادث؟ ما كل هذه الأسئلة السخيفة حقًّا! كنتُ أظنكم أذكى من ذلك، ولكن لا بأس... سأسديكم هذا المعروف وأخبركم بالتفاصيل، لقد تمكن من فعل كل

هـذا لأنـه بـكل بسـاطةٍ هـو «فـؤاد الألفـي» الأريـب، أشـهر محـامٍ في الجمهوريـة بأسرهـا، ولأننـي أولًا ابنـة «الأسـيوطي» أكـبر رجـل أعـمالٍ قـد تسـمعون عنـه يومًـا، ولأننـا نحـن عِليـة القـوم لنـا عالمنـا الخـاص الـذي نحيـا بـه، والـذي تـسري عليـه قوانيننـا التـي تختلـف تمـام الاختـلاف عـن قوانينكـم العقيمـة في عالمكـم هـذا، قوانيننـا العظمـى التـي لهـا حـق النفـاذ حينـما نسـتحضرها في أي موقـفٍ أيًّـا مـا كان، والتـي تدحـض قوانينكـم وتـسري عليكـم أينـما كنتـم. لنـا سـطوتنا الطاغيـة، ونفوذنـا الأسـمى، ووضعنـا الاجتماعـي المرمـوق، وأموالنـا التـي تفتـح أمامنـا مغاليـق كل الأبـواب.

ذلـك الفتـى الصغـير الـذي دهسـته عرضًـا عـن طريـق الخطـأ، والـذي يقبـع الآن في مستشـفى اسـتثماري كبـير ويتلقـى علاجًـا لائقًـا، وتزدحـم حافظـة نقـود والـده بمبلـغٍ ضخـمٍ نظـير تنازلـه عـن المحـضر، مبلـغ لم يكـن ليحلـم بامتلاكـه يومًـا... لا بـد وأن والـده يحمـد الله الآن عـلى وقـوع هـذا الحـادث لابنـه. لا تتعجبـوا! فهكـذا نحـن دائـمًا نغـدق بعطايانـا عـلى الفقـراء الذيـن نلتقيهـم خـلال مرورنـا في رحلـة الحيـاة، قـد تكـون عطايانـا هـذه متمثلـة في مبلـغٍ مـاليٍّ يصـل إلى آلاف الجنيهـات، كـما حـدث مـع

ذلك الفتى سعيد الحظ الذي اصطدمت به منذ ساعات، أو قد تأتي هذه العطايا في هيئة لقاءٍ نادر الحدوث، تمطركم سحبه بلآلئ الأخبار، وبأنباءٍ عن أشخاصٍ لم يكن يجول بمخيلاتكم أن تسمعوا عنهم يومًا ما كما حدث معكم هنا... أقول إن شمس عطايانا لا تعرف طريقًا للأفول، ولكن فقط مجدودي الحظ هم من ينالون هذه العطايا دون غيرهم من التعساء، ولعمري إني لأراكم من مجدودي الحظ حقًّا.

أعتقد أني سأفتقد صحبتكم جميعًا، باستثناء ذلك المزعج الذي ما فتئ صوت شخيره يقلقنا كلما استرسلنا في قصة حياة «الأسيوطية»، وكذلك الفتى الذي كان يتجشأ في بشاعةٍ وقت تناولنا للطعام، وأيضًا ذاك اللحوح الذي ما لبث يقاطعني بأسئلته السخيفة كلما هممت بالتحدث، نسيت كذلك هذا الذي كان يثرثر طوال الوقت فيتطاير الرذاذ من بين شدقيه في اتجاهنا. يا الله! لقد كدت أتقيأ كلما أخذ في الثرثرة. نعم لقد تذكرت... هناك أيضًا ذلك البشع الذي يدخل خنصره ليعبث في أذنه تارة وفي أنفه تارة أخرى. أفٍ لكم! يبدو أني لن أفتقد الكثير منكم، حسنًا، كنتُ أتوقع ذلك على أي حال.

أراكم تتهامسون بكوني فتاة شريرة للغاية! ليكن.. لتعلموا فقط بأن الأشرار يعيشون الحياة الأطول، وبأنه لا يهمني كوني شريرة من وجهة نظركم ما دمتُ سأحيا طويلًا لأرفل بكل هذا النعيم الذي يحيطني من كل صوبٍ وحدب. أعلم أن الكثيرين منكم ها هنا يكرهون من كانت مثلي، وقد يحسدونها على ما هي فيه، لا بأس ببعض الكراهية، فأحيانًا تكون تلك الكراهية محمودة العواقب، أنا لم أخش أن أكون مكروهة أو محل حسدٍ من أحدكم في أي وقتٍ سابق، ذاك لأني أؤمن كثيرًا بمقولة «راسبوتين» الخالدة (كلما كثر أعدائي كلما ازددت قوة).

لتكرهوني إذا ما أردتم، أو لتحسدوني، أو لتضعوني في مصاف الأعداء، فطالما أن الأمر سينتهي بي حيثما أريد وأرغب، فلِمَ أكترث بآرائكم من الأساس؟ مهلًا مهلًا... لِمَ تحدقون بي هكذا وكأن قولي هذا لا تستسيغه أنفسكم أو كأنكم ترغبون في افتراسي؟ لتخفضوا أعينكم عني قليلًا، لا، بل لتخفضوها كثيرًا، نعم هكذا، يا للعجب! ألمح بعضكم ينظر نحوي خلسة وكأنني لن أراه، تبًّا لكم يا مسترقي النظر! تنعتونني

بأقـذع الألفـاظ متعللـين باشـمئزازكم منـا، وفي ذات اللحظـة تلاحقوننـا بنظراتكـم النهمـة أينـما حللنـا، فـأي تناقـض ذاك؟

هـل هنـاك مـن شيءٍ آخـر ترغبـون في معرفتـه قبـل مغـادرتي لكـم؟ تقولـون بـأني لم أخبركـم بشـأن أوراقـي الخاصـة؟ سـأعلمكم بالأمـر ولكـن لا تتصايحـوا هكـذا، فبإمـكاني سـماعكم أيضًـا إذا مـا خفضتـم أصواتكـم قليـلًا، مـاذا عسـاي أقـول لكـم يـا تـرى؟ لقـد تـم الأمـر بمنتهـى الانسـيابية، كل مـا هنالـك أن «فـؤاد الألفـي» قـد أحـضر رخصتـيّ القيـادة والسـيارة الخاصتـين بي، ولكنـه لم يتمكـن مـن العثـور عـلى بطاقـة رقمـي القومـي؛ فقـام بضـماني لأتمكـن مـن الخـروج مـن هنـا، لا ألومـه كثـيرًا عـلى عـدم العثـور عليهـا، فأنـا شـخصيًّا لا أعلـم مكانهـا عـلى وجـه الدقـة.

لا تدعـوا الدهشـة تسـتبد بكـم هكـذا، فتلـك البطاقـة هـي آخـر مـا همنـي يومًـا... لا تفغـروا أفواهكـم وأعـيروني انتباهكـم للحظـاتٍ لأخبركـم بسـبب قـولي هـذا.

إن هـذا الرقـم القومـي الـذي أرهقوننـا بأهميتـه ليـل نهـار في واقـع الأمـر قـد تحتاجونـه أنتـم كبطاقـة تعريـفٍ بكـم، تلزمكـم لإتمـام مصالحكـم الخاصـة. بدونـه أنتـم لا شيء، غـير مرئيـين عـلى الإطـلاق، تمامًـا كـذرات الهـواء، أمـا عنـي أنـا، فـما حاجتـي لـه مـا دمـتُ أمتلـك

اسـمًا مميـزًا أسـتخدمه كجـواز مـرورٍ لي في هـذه الحيـاة؟! اسـمًا يذلـل لي جميـع الصعـاب، يفتـح أمامـي كافـة الأبـواب المغلقـة، يغنينـي عن حمل تلـك البطاقـة البلاسـتيكية الخرقـاء. ماذا تسـمون ذلك في عرفكـم؟ فأنا أذكـر أنكـم تطلقـون عليـه تعريفًـا مـا... كدأبكـم دائـمًا حينـما ترغبون في إضفـاء قبـسٍ مـن الفلسـفة عـلى أنفسـكم كنـوعٍ مـن التعويـض المعنـوي عـن افتقادكـم لغالبيـة حقوقكـم في دنيانـا هـذه، نعـم لقـد تذكـرت، تسـمونه «محسـوبية»، حسـنًا... لتطلقـوا عليـه مـا تشـاؤنه مـن ألقـاب، إن ذلـك لـن يغـير مـن واقـع الأمـر شـيئًا، ففـي النهايـة هـي حقيقـة سـيفها نافـذ عـلى أعناقكـم، لا يسـتطيع أي منكـم إنكارها أو التنصـل مـن وجودهـا. خـير دليـل عـلى صحـة كل مـا أخبرتكـم بـه يتواجـد أمـام أعينكـم تمامًـا في هـذه اللحظـة، انظـروا إليَّ جيـدًا لتدركـوا أن الأمـور في زماننـا هـذا تسـير تمامًـا كـما أقـول لكـم. فهـا أنـا ذا أمامكـم الآن أخبركـم بـأني لم أحتـج لرقمٍ قومـيٍ في أي يـومٍ كان.

أنـا... «سـلمى وجيـه الأسـيوطي» لا أحمـل معـي بطاقـة هويتـي الشـخصية حيثـما أسـير، ذاك لأن اسـم والـدي في حـد ذاتـه هـو هويـة شـخصية مميـزة للغايـة، بطاقـة تعريـفٍ خارقـةٍ لا أخجـل مـن إبرازهـا عندمـا يتحتـم عـليَّ ذلـك.

أنـا «سـلمى الأسـيوطي» ابنـة «وجيـه الأسـيوطي» الأشـهر، أفخـر بـأن اسـم والـدي هـو رقمـي القومـي... الخـاص جـدًّا.

أثـق بـأني قـد أفدتكـم كثـيرًا اليـوم، وبـأن هـذا اللقـاء سـيظل محفـورًا بذاكرتكـم أبـد الدهـر، تسـتحضرونه كلـما خلوتـم بأنفسـكم، أو لتقصـوه عـلى كل مـن يصادفكـم في زهـوٍ وفخـار، ذاك لأنكـم التقيتـم ابنـة «الأسـيوطي».. لا داعـي لأن تشـكروني عـلى حُسـن صنيعـي معكـم، فنحـن كـما أخبرتكـم نحـب الإغـداق بعطايانـا عـلى كل مـن حولنـا. سـأودعكم الآن لأذهـب هنـاك حيـث عالمـي الـبراق، ولكـن قبـل ذهـابي دعـوني أسـديكم خدمـة أخـيرة، كلمـة أهمـس بهـا في آذانكـم...

«لا تنسوا حمل بطاقة رقمكم القومي... أينما ذهبتم».

الكاتبة في سطور..

- عبير مصطفى محمد.
- شاعرة وروائية مصرية من مواليد القاهرة.
- حاصلة على بكالريوس العلوم الزراعية (شعبة البساتين) من جامعة القاهرة.
- نائب رئيس مجلس إدارة كاريزما للنشر والتوزيع.
- عضوة في فريق كوكب العزلة الأدبي.
- عضوة في مبادرة نساء مبدعات.
- عملت كمذيعة ومعدة برامج براديو تردد وراديو بنت الزيات.
- عملت كمحررة بجريدة حديث الصباح الشهرية.

- عملت كمدققة لغوية بدار جولدن بوك للنشر والتوزيع.

نُشِرت لها عدة أعمال ورقية..

- كتاب (هذا أنا) قصص قصيرة وخواطر لمجموعة مؤلفين والصادر عن دار الزيات للنشر والتوزيع.
- كتاب (رؤى حالمة) قصص قصيرة وخواطر لمجموعة مؤلفين والصادر عن دار الزيات للنشر والتوزيع.
- كتاب (أوتار) خواطر وأشعار لمجموعة مؤلفين والصادر عن دار لوتس للنشر الحر.

شاركت في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٨ بأعمال:

- كتاب (رؤى القلب) مجموعة قصصية لمجموعة مبدعين من أنحاء مختلفة من الوطن العربي تحت مبادرة نساء مبدعات، والصادر عن دار الشهد للنشر والتوزيع.
- كتاب (كوكب العزلة) مجموعة قصصية لمجموعة مبدعين ويُعد أولى إصدارات فريق كوكب العزلة الأدبي والصادر عن دار جولدن بوك للنشر والتوزيع.

- ديـوان (رسـائل لم تصـل إليـك) رسـائل عاطفيـة نثريـة وهـو أول كتـاب منفـرد خـاص بهـا والصـادر عـن دار جولـدن بـوك للنـشر والتوزيـع.
- شـاركت في معـرض القاهـرة الـدولي في يوبيلـه الذهبـي بـأولى رواياتهـا تحـت عنـوان (حـضرة المتهـم قلبـي) والصـادرة عـن كاريزمـا للنـشر والتوزيـع.

لمتابعة أعمالها على فيس بوك عبر حساب..

https://www.facebook.com/abeer.mostafa.90475

كاريزما
للنشر والتوزيع